مجمع السيدة رقية (عليها السلام)

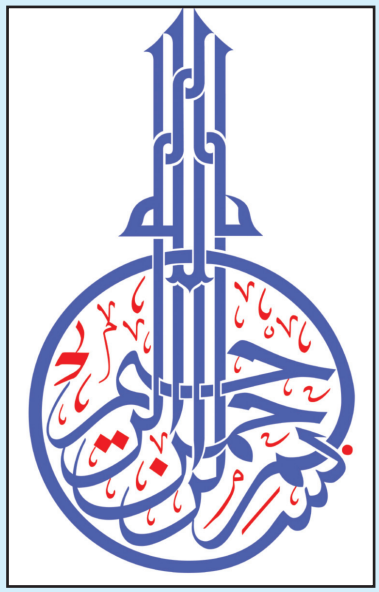

ارتقاء

مجلة فصلية ثقافية
تعنى بالعلوم الإسلامية و الإنسانية
تصدر عن مجمع السيدة رقية (عليها السلام)
للدراسات العربية و الإسلامية

المدير المسؤول:
سماحة السيد عبد الله نظام

رئيس الهيئة العلمية :
الشيخ الدكتور نبيل الحلباوي

رئيس التحرير :
المستشار الإعلامي ميسر سهيل

أمين التحرير :
الدكتور محمد نظام

هيئة التحرير :
فتحي نظام
سندس العضل - راما دياب

العلاقات العامة :
عماد كامل زلزلة

سكرتير التحرير :
أحمد الأخرس

الهيئة العلمية :
د. عبد الله طلبة
د. ناصر علي
د. الياس أبو يونس
د. محمود ترمانيني
الشيخ جمال جزان
د. محمد أمين العسكري

تصوير : أحمد الأشقر

المدقق اللغوي :
د. ناصر علي

تصميم و إخراج :
لبيب صندوق

رمضان شهر الغفران

كلمة رئيس التحرير
ميسّر سهيل

يحتفل المسلمون في أصقاع الأرض بحلول شهر رمضان المبارك الذي خصه الله بركن من أركان الإسلام وهو الصيام، حيث قال تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... ﴿١٨٥﴾ (البقرة)

فمن تعرّض بهذا الشهر لنفحاته فاز فوزاً عظيماً، حيث قال الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) :(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه). فرمضان موسم الاغتراف من فيوض الله الروحية، والتسابق في التقرب إلى الله بقراءة القرآن والذكر وقيام الليل والتضرع إلى المولى عزّ وجلّ بالدعاء، (فالدعاء مخ العبادة) ليفوز الصائم بجائزة المغفرة والرضوان.

صعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) في آخر يوم من شعبان المنبر وقال: (أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر

والصبر ثوابه الجنة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار).

شهر رمضان مبارك أيضاً بنزول القرآن الكريم فيه، ليغير التصور الجاهلي بتصور رحماني تسود فيه العقيدة الربانية، وتنطلق في ظلاله الحرية والعدالة والمساواة، ليتجه فيه الإنسان إلى تنمية الحياة، وبناء كل ما يحقق سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، ضمن دستور إلهي حكيم.

فرمضان مدرسة لصفاء النفوس وطهارة القلوب التي يلقى بها الإنسان وجه ربه جلّ وعلا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، والسلامة تكون من الشحناء والبغضاء، ونبذ التعصب العرقي والمذهبي حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) : (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)، فما أروع أن ترتقي العقول والأفكار إلى تعميق الأخوة الإيمانية بعيداً عن الاختلاف الديني أو المذهبي لقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلّم) (إنما المؤمنون إخوة).

وعلى المسلمين في هذا الشهر الفضيل أن يوحدوا الصفوف ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا، ويدركوا أن أعداء الأمة يسخرون كل قواهم البشرية والمادية والإعلامية لبث التفرقة وتمزيق عرى المحبة، ويدفعون المرتزقة والمأجورين لإشعال الفتن والتحريض على توتر العلاقات بأكاذيب مضللة، وتصوير الإخوة أعداء ببث أفكار باطلة، عرقية تارة ومذهبية أخرى، فليكن رمضان شهر يقظة الصفاء الروحي والوعي الاجتماعي والنقاء الفكري والارتقاء النفسي، حتى تتحقق لنا بركة دعائنا اليومي : اللهم سلمنا لرمضان وسلم رمضان لنا وتسلمه منا متقبّلا يا رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس العدد

- **خاطرة... أعربيّ أنت؟!**
  م. محمد عبد اللطيف عبد الله نظام ٦
- **العصمة "مسألة خلافية بقراءة تقريبية"**
  سماحة السيد عبدالله عبد اللطيف نظام ٧
- **أسس الانفتاح الفكري**
  الدكتور الشيخ نبيل الحلباوي ١٩
- **مكانة المرأة في نهج البلاغة**
  د.ناصر علي ٣٣
- **المركزية الإدارية وتطبيقاتها**
  د. سعيد نحيلي ٤٥
- **إنهاء العلاقة الإيجارية في الفسخ استثناء من الأصل**
  أ. د. زهير حرح ٥٩
- **التحكيم الشرعي والإصلاح الأسري**
  عماد كامل زلزلة ٦٩
- **نشاط مجمع السيدة رقية (ع)**
  أحمد الأخرس ٧٩
- **الإنسان... بين محراب العبادة وميدان السلوك والمعاملة**
  د. محمد نظام ٨٩
- **رمضان وشجرة التمر الهندي**
  أ. ميسر سهيل ٩٧

- **الجراثيم كائنات حية بدوام كامل**

د. خلود الجزائري ١٠٥

- **الأسرة في رمضان بين التدبير والتبذير**

الدكتور الشيخ علاء الدين محمود زعتري ١١٩

- **عقود البنية الأساسية (BOT) وآثارها الإيجابية والسلبية على الاستثمار في سورية**

القاضي المستشار الدكتور محمد وليد منصور ١٣٣

- **معجم (متن اللغة) كتاب عظيمٌ منسيّ**

د. محمد رضوان الداية ١٤١

- **المسألة السلوكية وعمل المدير في المنظمات المعاصرة**

د. بسام التزه ١٤٩

- **الخيانة الزوجية وأثرها في المجتمعات الشرقية**

أ.د. سلوى مرتضى ١٥٩

تنويه :

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها و لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، و يخضع نشر المواد و تسلسلها لاعتبارات فنية.

الموقع الإلكتروني للمجلة: www.roqayya.com

فيس بوك : ارتقاء

ترحب المجلة ببحوث الكتاب بحدود (٣٠٠٠ - ٣٥٠٠) كلمة ، قياس الحرف ١٦ .

و نوع الخط (Simplified arabic) أو (Times New Roman)

على أن ترسل للمجلة على قرص مضغوط Cd

أو على البريد الإلكتروني للمجلة Email : msuhail2008@gmail.com

موبايل : ٠٩٣٣٤٥٧٤٥٠

العدد ٢٣

حزيران ٢٠١٨ م - شهر رمضان ١٤٣٩ هـ

خاطرة

أعربي أنت ؟!

المهندس محمد عبد اللطيف عبد الله نظام

أعربيٌّ أنت؟ وعروبتك نصبٌ لآلام أهلها و عذابات وُلدِها؟

وأنتَ الجاثم هناك، على قصص الأمس، صاحبٌ للهوى، وصاحب الهوى يهوى حكايا الأمس، ويخشى في حضرة الغربي حتى الهمس، سبعون عاماً وأطفالي يصطفون اسماعيل خلف اسماعيل للذبح، أودعهم مراراً وفي القلب مرارة، لكني ما ولدتهم إلا وفي قلب كل واحد منهم زرعت فيه من جمري شرارة، شرارة لا تنطفئ، لا وأرواح فوارسي لا تنطفئ، شرارة لانتفاضة جديدة، طالما هناك أسيرٌ يحلم بأصابع طفلته الصغيرة، وأمٌّ تودع شهيداً وترضع آخر، عظماءُ هم، واسماعيلي لا يُفتدى إلا بذبحٍ عظيم ...

العصمة «مسألة خلافية بقراءة تقريبية»

سماحة السيد عبدالله عبد اللطيف نظام

رئيس مجمع السيدة رقية عليها السلام - فرع جامعة بلاد الشام

مقدمة

إن التراث الإسلامي بمذاهبه المختلفة بحاجة إلى دراسات مقارنة في الأصول وفي الفروع تساهم في الانفتاح على الآخر، وتعرّف بمبانيه وأدلته على مسائل العقائد والأحكام وتتحدد بموجبها نقاط التوافق والاشتراك كما تتحدد أيضاً نقاط الاختلاف، على أن تجري تلك البحوث بموضوعية تامة دون انحياز وأحكام سابقة أو مبتنيات قبلية لدى المشاركين، بعد تحديد المصادر المعتبرة لدى كل فريق لتكون المصدر الذي تؤخذ منه أقوال المذهب ولتكون المعرّف على مبانيه، مع التركيز على نقاط التوافق وما أكثرها، وبيان نقاط الاختلاف وتحديد مناشئه من رواية اختلف في تصحيحها أو مدلولها ومن آية اختلف في تفسيرها وتحديد مضمونها، ليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه طالما أننا جميعاً نقتبس من هدي الله تعالى ومن نور نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، متجنبين في ذلك الجدل والخلافات اللفظية لتكون غاية الجميع الوصول إلى الحقيقة وإيجاد التقارب الحقيقي والأخوة بين المسلمين، والتخلص من شوائب كثير من كتب

التراث التي تطعن على الآخر دون تثبّت وتنسب إليه ما لا يقوله أحياناً، والتي كتب الكثير منها تحت تأثير ظروف سياسية عصفت بعالمنا الإسلامي وباعدت بين أبنائه وأشاعت البغضاء بينهم وقطّعت أوصاله.

لقد كان لا بد من محاولة حدد الحبيب المصطفى منهجها «ابدأ بنفسك أولاً ثم بأخيك...».

فكانت هذه المقالة التي حاولت فيها أن أتجنب كل تلك السلبيات ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وأترك للقارئ الكريم أن يحدد مدى توفيقي بذلك، وقد أردتها دعوة إلى مشروع علمي ينهض بالأمة ويجمع أبناءها، راجياً من الله التوفيق لكل خير، فاخترت عنوان مسألة خلافية وعقبت عليه بقراءة تقريبية.

المعنى اللغوي للعصمة

العصمة لغة: المنع والوقاية، يقال: عصم، يعصم، اكتسب، ومنع، ووقى.

والعِصمة بالكسر: المنع.ووردت أيضاً بمعنى الحفظ.

واعتصمت بالله: امتنعت بلطفه عن المعصية[١].

فالعصمة بأصل اللغة: ما اعتصم به الإنسان من الشيء كأنه امتنع به عن الوقوع فيما يكره[٢].

المعنى الاصطلاحي للعصمة

العصمة اصطلاحاً: لطف يفعله الله في المكلف بحيث لا يكون له مع ذلك داع إلى ترك الطاعة ولا إلى فعل المعصية مع قدرته على ذلك[٣].

وعرفها العضد الإيجي بقوله: ملكة تمنع عن الفجور[٤].

واشترط الفخر الرازي أن لا ينتهي ذلك إلى حد الإلجاء[٥].

١- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة عصم، ج٤، ص ٣٣١ ـ ص ٣٣٣.

٢- الشيخ المفيد، محمد، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، المطبعة الحيدرية، ط٣، النجف، ص ١٦٨.

٣- السيوري، المقداد، إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، ص ٣٠١ـ ص٣٠٢.

٤- الإيجي، عضد الدين، المواقف، ص ٣٦٦.

٥- الغرباوي، حسن حميد عبيد، العصمة في الفكر الإسلامي، نشر دار طيبه، مكتبة أضواء البيان، سوريا، ط١، ٢٠٠٧.

أي لا تصبح إكراهاً على فعل الطاعة وترك المعصية، فالإلجاء: الإجبار.

وعرفها الشيخ المفيد فقال: العصمة الامتناع بالاختيار عن فعل الذنوب والقبائح عند اللطف الذي يحصل من الله تعالى[1].

وأضاف بعضهم إلى الامتناع عن الذنب، عدم المنفر وما ينافي الغرض من بعثة المعصوم فعرَّف العصمة بأنها: ملكة نفسية تمنع المعصوم من أن يقدم على ذنب أو يكون فيه ما يتنافى والغرض الذي لأجله بعث إلى الناس[2].

ويظهر من هذا التعريف أنها أمر وظيفي، ذو منشأ واقعي يتمثل في حاجة من نصبه الله تعالى نبياً أو إماماً لئلا يصدر عنه أو يكون فيه ما ينافي الغرض الذي نصب لأجله، سواء كان المنافي ذنباً أو خطأ في التبليغ أو صفة أو عيباً أو نقصاً أو طريقة تعامل، والخلاصة كل ما ينفر الناس منه ويبعدهم عنه، وإذا كان الامتناع عن الذنب لا يصل إلى حد الإلجاء فإنه يعني أن العصمة ليست أمراً تكوينياً يدخل في طبيعة الإنسان بحيث يكون جزءاً من أصل تكوينه وجبلّته، ولذلك هي أمر وظيفي يرجع إلى حاجة من نصبه الله تعالى إماماً وهادياً لأن يكون معصوماً عن كل ما يتنافى والغرض الذي نصب من أجله.

ومن أخصر التعريفات، ما ذكره بعضهم من أنها «خلق مانع غير ملجئ» وعلّق عليه بأنه يلائم قول الإمام أبي منصور الماتريدي» العصمة لا تزيل المحنة» أي أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية، بل هي لطف من الله تعالى يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار: تحقيقاً للابتلاء والاختيار»[3].

يظهر مما تقدم أن تعريفات العصمة عند الأشاعرة وعند الإمامية تلتقي على أنها ملكة نفسانية يوجدها الله تعالى في نفس المعصوم تردعه عن المعصية وتقوده إلى الطاعة، وسواء قلنا إنها لطف أو أنها عدم القدرة على المعصية

١- الشيخ المفيد، محمد، أوائل المقالات، م . س، ص ٧٠.
٢- الحلي، مسلم الحسيني، محاضرات في أصول العقائد، مطبعة الأزهر، ١٣٩٠ ـ ١٩٧١، بغداد، ص ٢٦.
٣- محمد، ابن أبي شريف، المسامرة بشرح المسايرة، ص ٢٢٩، د. أحمد بن قاسم العبادي، الآيات البينات على شرح جمع الجوامع لـ(جلال الدين المحلي) ١٦٨/٣، والملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص ٥٧.

لكـن دون إلجاء، مع اعترافهـم بوجود تدخل إلهي بنحو مـا يؤثر العصمة في المعصوم ويوجدها.

ويؤكد ذلك ما ذكره الفريقان من الأسباب التي توجد العصمة في المعصوم نفسـه مع حرصهم على الحفاظ على الاختيـار، وقد حصرت إجمالاً في أربعة أسباب:

أحدها أن يكون لنفسه أو بدنه خاصية تقتضي ملكة مانعة عن الفجور داعية إلى العفة[١].

ثانيها: أن يحصل له العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

ثالثها: تأكيد تلك العلوم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى.

رابعهـا: أنـه متى صدر عنه أمر مـن الأمور، من باب تـرك الأولى ـ أو النسيان ـ لم يترك مهملاً بل يعاقب عليه وينبه عليه ويضيّق الأمر عليه فيه.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشـخص معصوماً عن المعاصي لا محالة، لأن ملكة العفة إذا حصلت في جوهر النفس، ثم انضاف إليها العلم التام بما في الطاعة من السعادة، وفي المعصية من الشقاوة، صار ذلك العلم معيناً له على مقتضى الملكة النفسانية، ثم الوحي يصير متمماً لذلك، ثم خوف المؤاخذة علـى القدر القليل يكـون توكيداً لذلك الاحتراز فيحصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة[٢].

فإن خلق الحال أو الخاصية، والعلم بمثالب المعاصي، وتتابع الوحي وعتابه على ترك الأولى لطف إلهي يفعله الله في شـخص المعصومين وهو أشـد وآكد من اللطف الذي يفعله الله تعالى بسـائر عباده، وهـذا يرجع إما إلى اصطفائهم لمعرفته تعالى بأحوالهم المسـتقبلية وصلاحهـم للقيام بما يوكّلون به، فإن الذي عصمهـم هو علام الغيوب الذي لا يتوقّف علمه علـى وجود المعلوم، وإما أن يرجـع إلى مقتضيات الوظيفة التي كلّفـوا بها، مع عدم نفي الاختيار عنهم، مع

١- أي أن الله تعالـى خلـق فيهم حالاً ـ أي هيئة نفسـانية غير راسـخة ـ ثـم تصير ملكة وهيئة راسـخة مع حصول باقي الأسـباب المذكورة. شـرح المواقف. م . س. ج٨. ص٢٨١. بتصرف يسير. العصمة للغرباوي. م . س. ص١٧.

٢- الرازي. محصل أراء المتقدمين والمتأخرين ص ١٥٩. المحسني. محمد آصف. صراط الحق. ج٣. ص٢٩-٣٠.

الأخذ بعين الاعتبار أنّ تلك المنحة الربانية التي منحت لمستحقيها من الأنبياء على أساس الاصطفاء اقترنت بمسؤوليات كبيرة وأقوال ثقيلة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل]، وأذى ومشقات وتضحيات جسام تحمّلها المعصوم أثناء قيامه بوظيفته، فهي منحة ضرورية لتأديته لمهمته، فالعصمة أمر وظيفي ذو منشأ واقعي ينبع من دور وحياة وظروف المعصوم.

وإذا عرّفنا العصمة بأنها ملكة نفسانية تمنع المعصوم من أن يكون فيه أو يحصل منه ما يتنافى والغرض الذي بعث لأجله إلى الناس أمكننا الإحاطة بها من جميع جوانبها والإجابة على جميع التساؤلات ورد جميع الشبهات، فإن الأمر الضروري لتنظيم حياة البشر لا يسأل عنه لِمَ أعطي لفلان ولم يعط لغيره، لأنه لو حصل لورد ذات السؤال، ولأن الله يعلم حيث يجعل رسالته.

وطالما أن أمر العصمة مرتبط بالوظيفة والدور المكلف به، فإنه لا ينبغي أن يسأل عن سعتها ولا عن نفوذها في المغيبات وغيرها لأنها تدور في ذلك مدار وظيفة المعصوم وواقع حاله، بل حتى لو قلنا إن العصمة نتاج خلق خاص، وأن الله تعالى خلق المعصوم معصوماً، فإنه يجاب على ذلك بأن تنظيم حياة الناس إذا توقف على شيء وكان لابد منه يفعله الله،ولا ضير أن يخلق المعصوم معصوماً ليقوم بهذه المهمة وهو جلّ شأنه لا يسأل عما يفعل، وادعاء بعضهم ظلم غير المعصوم بذلك، ادعاء باطل لأن الظلم هو منع أحد حقه وليس لأحد حق عند الله تعالى والتفضيل بالعطاء لسبب ليس ظلماً.

إن علينا فحسب أن نعتقد أن الله عز وجل عدل لا يجور في حسابه وهذا كاف في حل المسألة ولعل قوله ﷺ «أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار إلى أصبعيه الكريمتين»[1]. يفسر ذلك، فسيد الرسل النبي المعصوم بناء على تلك الرواية مع كافل اليتيم غير المعصوم في مرتبة واحدة عند الله في الجنةفكل فرد مكلّف بما هيّئ له.

إن التعريفات السابقة تظهر جهات للتوافق وتفسيرات متماثلة لبعض

١- العِراقي: ابن السبكي؛الزبيدي؛تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ط١، دار العاصمة للنشر، الرياض، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧، ج٥، ص ٢١٣٥.

جهات المسألة، فإن نفي الإجبار والإلجاء عن المعصوم يعبّر عنه بتعريفات متماثلة عند الشيعة والسنة وإن اختلفت بعض أسسها، فصاحب المواقف عرّف العصمة بناء على ما تقتضيه أصول الأشاعرة من استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء فقال: «أن لا يخلق الله فيهم ذنباً» ، ولا بد من تفسير ذلك استناداً لما يذهب إليه الإمام أبو الحسن الأشعري من أن القدرة الحادثة لا يخلقها الله تعالى في العبد إلا عند خلقه تعالى الفعل الاختياري[١]، وإذا قارنّا هذا القول مع مقالة الشيعة من «أن كل الظواهر وإن استندت في نهاية سلسلتها إلى الإرادة التكوينية الإلهية كما وضحناه في بحوث التوحيد فإنه توجد في هذا المجال بالذات عناية وتوفيق خاص من قبل الله، لذلك يتأكد أكثر إسناد العمل لله في موضوع بحثنا، ولكن الإرادة الإلهية في طول إرادة الإنسان لا في عرضها وليست بديلة عنها وقائمة في مقامها»[٢].

وقال الإمام الرازي عند تفسيره قول الأشاعرة بالكسب: هي صفة تحصل بقدرة العبد بفعله الحاصل بقدرة الله تعالى، فإن الصلاة والقتل مثلاً كلاهما حركة، ويتمايزان بكون إحداهما طاعة والأخرى معصية وما به الاشتراك غير ما به التمايز، فأصل الحركة بقدرة الله تعالى وخصوصية الوصف ـ صلاة أو قتل ـ بقدرة العبد وهي المسماة الكسب[٣].

وخلاصة الكلام في أفعال العباد ما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث قال: «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين»[٤].وهذه النتيجة متفق عليها بين الشيعة والأشاعرة وإن اختلفت المقدمات والعبارات التي يستند إليها الفريقان.

الذي أراه أن الله تعالى استخلف الإنسان ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴿٣٠﴾﴾[البقرة]، وهذا يعني وجود منهج للاستخلاف فلا بد له من رسول مبلّغ

١- الإيجي، المواقف، م. س، ج٨، ص ٢٨٠-٢٨١.
٢- اليزدي، محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، ط٨، دار الرسول الأكرم، لبنان، بيروت، ١٤٢٩ـ ٢٠٠٨م، ص٢٤٧.
٣- تفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط١، منشورات الشريف الرضي، إيران، قم، ١٩٨٩م ــ ١٤٠٨هـ، ج٤، ص٢٢٥.
٤- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٥،ص١٧، ح ٢٨، نقلاً عن الاعتقادات للشيخ الصدوق ٢٩.

ولا بد من كونه معصوماً،وسواء خلق الله المعصوم معصوماً أو اصطفى من له هذه الأهلية ولطف به حتى كان كذلك فالمسألة لا تخرج عن فعله تعالى بنحو من الأنحاء.

النقطة الثانية في سعة العصمة وشمولها من حيث الزمان، فهل تشمل ما قبل البعثة؟ ومن حيث العمل،فهل تشمل شؤون الدين والدنيا؟، والامتناع عن فعل الكبائر والصغائر عمداً أو سهواً؟ وعدم اتصاف المعصوم بالكفر ولو للحظة في مجموع حياته، وبالتالي عدم تولده من أبوين كافرين لئلا يلحق بهما بالتبع في زمان الصغر؟.

ذهب الشيعة إلى شمول العصمة زمان البعثة وما قبله عن الكبائر والصغائر وكذلك في شؤون الدنيا وسائر ما ينفّر من شخص المعصوم ويمنع من اتباعه من العيوب الجسدية والنفسية والنسبية وقالوا بلزوم تولده من أبوين موحدين لئلا ينسب إلى الكفر لحظة ولو من جهة التبعية لهما حال الصغر، كما قالوا بعدم جواز التقية للمعصوم أمام الظالمين لما يسببه ذلك من ضياع صورة الحق، فلم يؤثر عن نبي قط أنه أنكر أمام جبار نبوته ومنصبه الرباني[1]. ولو تعرض إلى أنواع الأذى والتهديد بالقتل وصنوف العذاب كما حصل مع موسى أمام فرعون وإبراهيم أمام نمرود وغيرهما من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وأما الأشاعرة فقالوا بعصمة الأنبياء عما ينافي مقتضى المعجزة في إثبات صدق دعوى نبوتهم وتبليغهم عن الله عز وجل، فلا يجوز عليهم الكذب في التبليغ[2].

كما لم يجوّزوا عليهم الكفر قبل النبوة وبعدها، وأما كبائر الذنوب فقد منع جمهور المحققين من صدورها عمداً، واختلفوا في منعها سهواً أو من جهة الخطأ في التأويل فذهب الأكثر إلى جوازه واختار الشريف الجرجاني خلافه[3].

١- وما نسبه إلى الشيعة بعض أعلام الأشاعرة من قولهم بجواز إظهار الأنبياء الكفر تقية نسبة دون تحقيق، أخطأ بها أحدهم وتابعه على ذلك آخرون تحت تأثير الإقبال الجمعي، وكم لهذا الإقبال الجمعي من تأثير سيء في حياة المسلمين. وإن التقية عند الشيعة لا تجوز في كل موضع تؤدي فيه إلى محو صورة الحق وضياع الدين، راجع ما ذكره صاحب فواتح الرحموت وغيره من نسبة خطأ حول ذلك،م . س، ج٢، ص٩٧.

٢- شرح المواقف، م . س، ج٨، ص ٢٦٢.

٣- م . ن، ج٨، ص ٢٦٥.

وأمـا تعمد الصغائر فقد ذهب جمهور المحققين إلى جوازه مع مخالفة بعضهم، وأما سـهواً فقد اتفق الجميع على جـوازه إلا صغائر الذنوب التي تلحق فاعلها بالسـفلة والأراذل والحكم عليه بالخسـة ودناءة الهمة كسرقة حبة قمح أو لقمة، هـذا كله بعد الوحي والنبوة وأما قبل ذلك فقال جمهور الأشـاعرة بأنه لا يمتنع أن يصـدر عنهم كبيـرة إذ لا دلالة على امتناعها قبل البعثة ولا دلالة للعقل ولا للنقل على امتناعها، وقال صاحب فواتح الرحموت: « أن الله لا يبعث من نشـأ فحاشاً، سفيهاً ولا من يفعل الأفعال المستحقرة»[١].

وقال صاحب فواتح الرحموت المتوارث: «أن الله لم يبعث نبياً قط أشـرك بالله طرفة عين»، ثم قال وعليه نص الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر، وفي بعض المعتبرات: أن الأنبياء عليهم السـلام معصومون عن حقيقة الكفر وعن حكمه بتبعية آبائهم وعلى هذا فلا بد من أن يكون تولد الأنبياء من أبوين مسـلمين...، وأما الأحاديث الواردة في أبوي سيد العالم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه فمتعارضة مروية آحاداً فلا تعويل عليها في الاعتقاديات[٢].

كما نسـب إلى الأحنـاف منعهم من صدور الصغائر غير الخسيسـة عمداً وعقـب عليه في مسـلم الثبوت[٣] بقوله: «وهو الحق فـإن صغيرتهم كبيرة في حقهـم وإن كانـت صغيرة في حقنـا ألا ترى مباحـات العوام سـيئات الابرار وحسنات الأبرار سيئات المقربين».

وأضاف المعتزلة عصمتهم عن كل ما يوجب النفرة منهم حتى ولو لم يكن ذنبـاً كعهر الأمهات وفجور الآباء ودناءتهم واسـترذالهم والصغائر الخسيسـة دون غيرهـا أي كل ما يوجب النفرة منهم[٤]. وأشـار إلى ذلك أيضاً التفتازاني في شرح المقاصد[٥].

١- الأنصاري، عبد العلي محمد بن نظام الدين، فواتح الرحموت في شرح مسلم الثبوت، ط١، مصر، ١٣٢٤، ص ٩٨.
٢- م . ن، ج٢، ص٩٨.
٣- فواتح الرحموت، م . س، ص ٩٩.
٤- الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف، ط١، منشورات الشريف الرضي، إيران، قم، ١٩٠٧، ١٣٢٥، ج٢، ص ٢٦٥.
٥- التفتازاني، سـعد الدين، شـرح المقاصد، ط١، انتشـارات الشـريف الرضي، إيران، قم، ١٤٠٩-١٩٨٩، ج٥، ص٥٠-٥١.

والإنصاف في هذه المسألة أن الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام معصومون منذ الولادة إلى الوفاة قبل البعثة وبعدها عن الصغائر والكبائر عمداً أو سهواً.

ومحل الخلاف مع الأشاعرة جواز الصغائر غير الخسيسة عليهم عمداً، وقد منعها من الأشاعرة الإمام أبو حنيفة[1] وقد علله بأن صغيرتهم كبيرة في حقهم وإن كانت صغيرة في حقنا،والشيعة يمنعون ذلك أيضاً، وأما العصمة قبل البعثة فالقائل بعدمها يستند إلى أنه لا أحكام شرعية قبلها، وهو محل اتفاق فلا أحد يقول بعصمة الأنبياء عن الكبائر والصغائر الشرعية قبل البعثة إذ لا شريعة قبلها ولا كبائر ولا صغائر لأنها من شؤون الشريعة وإنما هم معصومون عما يقع في نظر العرف، كالكفر والأفعال الفاسدة والخسيسة وما شابه، وهو ذات مقصود الشيعة من القول بعصمتهم قبل بعثتهم، فهم مطالبون فحسب بتوحيده تعالى ومكارم الأخلاق، وهو ما يتبناه إخوانهم أهل السنة أيضاً.

يلاحظ على ما تقدم أن هنالك اتفاقاً في كثير من نتائج البحث في العصمة بين مذاهب المسلمين وإن كان هنالك اختلاف في مقدماتها ومناشئها، ولكنلماذا نركّز على إبراز الاختلاف في المقدمات والأدلة ونهمل الاتفاق على النتائج؟!!

إن شيئاً من الاختلاف في المقدمات يعود إلى مسألة التحسين والتقبيح وأنهما عقليين أو شرعيين، وهي مسألة يجب أن ينتهي منها المسلمون.

لقد بيّن الإمام التفتازاني معنى هذا المصطلح فقال «وليس النزاع في الحسن والقبح بمعنى صفة الكمال والنقص كالعلم والجهل وبمعنى الملاءمة للغرض وعدمها كالعدل والظلم، وبالجملة كل ما يستحق المدح أوالذم في نظر العقول ومجاري العادات فإن ذلك يدرك بالعقل ورد الشرع أم لا، وإنما النزاع في الحسن والقبح عند الله تعالى بمعنى استحقاق فاعله في حكم الله تعالى المدح أو الذم عاجلاً والثواب والعقاب آجلاً، بمعنى أن العقل لا يحكم بأن الفعل حسن أو قبيح في حكم الله تعالى بل ما ورد الأمر به فهو حسن وما ورد النهي عنه

١- فواتح الرحموت. م . س. ص ٩٩.

فهو قبيح من غير أن يكون للعقل جهة محسنة أو مقبحة في ذاته ولا بحسب جهاته واعتباراته حتى لو أمر بما نهى عنه صار حسناً وبالعكس، وعندهم ـ أي الشيعة والمعتزلة ـ للفعل جهة محسنة أو مقبحة في حكم الله تعالى يدركها العقل بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار، أو بالنظر كحسن الكذب النافع وقبح الصدق الضار، أو بورود الشرع كحسن صوم يوم عرفة وقبح صوم يوم العيد.

فإن قيل: فأي فرق بين المدعيين في هذا القسم قلنا: الأمر والنهي عندنا من موجبات الحسن والقبح بمعنى أن الفعل أُمر به فحسُنْ ونُهي عنه فقَبُح، وعندهم من مقتضياته بمعنى أنه حَسُن فأُمر به أو قَبُح فَنُهي عنه، فالأمر والنهي إذا وردا كشفا عندهم عن حسن وقبح سابقين حاصلين للفعل لذاته أو لجهاته[1].

والشيعة عندما يقولون بالحسن والقبح العقليين، لا يعتقدون بأن علل الأحكام الشرعية وخصوصاً العبادية منها تدركها عقول الرجال فلا شك أن العبادات عندهم وقفية أي موقوفة على ما جاءت به النصوص الشرعية وهم يروون عن أئمتهم «أن دين الله لا يصاب بعقول الرجال»[2]، ولكن هذا لا يمنع أن الأحكام في ذاتها في جهة الأوامر مبنية على المصالح والمنافع وفي جهة النواهي مبنية على المفاسد الواقعية عندهم، وإن الأمر والنهي الإلهيين يكشفان عن وجود مصلحة واقعية، أو مفسدة كذلك يقدرها ربنا جلَّ شأنه وإن خفي ذلك علينا، فإنه تعالى لا يأمر إلا بما فيه مصلحة واقعاً، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة كذلك، وهم في ذلك يتمسكون بقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . . . ﴿٣٣﴾ ﴾[الأعراف]، ومعنى الآية أنه تعالى إنما حرم ما كان فاحشة في واقعه وحقيقته، سواء ظهر ذلك لكم أو خفي عليكم.

وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل].

١- التفتازاني، شرح المقاصد، م . س، ج٤، ص٢٨٢-٢٨٣.

٢- «إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة»، محمد بن علي بن بابويه الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: تحقيق: حسين الأعلمي، ط١، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩١- ١٤١٢هـ، ص٣٠٣.

أي إنــه يأمــر بما يكون في ذاتــه عدلاً، وينهى عما: يكون في ذاته فاحشــاً ومنكــراً، مما يعني وجود حســن وقبح ذاتيين للأشــياء وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ...﴿٢٩﴾ ﴾[النساء].

فإن النهي في الآية المباركة قد تعلق بما يكون أكلاً للمال بالباطل في واقعه وحقيقتــه، وذكره تعالــى للوصف دون الموصوف يعنــي أن جهة النهي تتعلق بمــا ينطبق عليه ذلك الوصف - الباطل - في حقيقته وواقعه.. إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

كما أنه تعالى قد بيَّن في كتابه أنه لا يجري الأمور إلا بأسبابها وإلا لغرض وحكمــة فيهــا وهو الذي وصف نفســه بالحكمة في كتابــه، والحكيم لا يفعل إلا لغــرض وهدف، بــل بيَّن ذلك أيضاً في كتابه الحكيــم فقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأنبياء].

ثم لماذا نتبنى التحسين والتقبيح العقليين في بعض الموارد وننفيه بعد ذلك، أو ليست عصمتهم عن الذنوب الصغيرة الخسيسة التي تلحق صاحبها بالأراذل والســفلة كما ذكــر صاحب المواقف وصاحب المقاصــد وكذلك صاحب فواتح الرحموت من التحسين والتقبيح العقليين؟!! لبنائه على لزوم النفرة.

وما الفرق بين التحســين والتقبيح العقليين وبين الاستحسان المبني على ما نسب إليه صلى الله عليه وآله وسلم «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» [1]؟.

وما الفرق بينهما وبين الاستصلاح، وبينهما وبين استنباط العلل في الأقيسة بطريقة السير والتقسيم وبإبداء مناسبتها للحكم وكذلك تحديدها بطريقة المناسب المرسل وهو الذي يظهر للمجتهد أن بناء الحكم عليه لا بد أن يحقق مصلحة ما مع أن الشارع لم يقم على اعتباره أو إلغائه أيما دليل؟.

لذا نحن في الحقيقة بحاجة إلى فقه مؤسساتي من خلال مجامع علمية بحثية مشتركة بين أعلام المذاهب الإسلامية تعيد النظر بما استنبطه السابقون وعدّوه

١- السرخســي، المبسوط، دار المعرفة للطباعة والنشــر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج١٢، ص٤٥؛ الرازي، فخر الدين، المحصول، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ج٢، ص٨٠.

أصولاً وفروعاً،وتهتم بعملها بنصف الكأس الملآن كما يقال،وتعيد تكريم العقل، فإن البعد عنه يؤسس لبلاءات ومصائب في عالمنا الإسلامي، مع التأكيد على أنه لا اجتهاد مقابل النص،كما أدعو علماء المسلمين أن لا يصنفوا الناس على هواهم في الدنيا إلى ملائكة وشياطين، وأن لا يحشروهم في الآخرة على هواهم على صور الأفاعي والقردة والخنازير، فيخرجون من دين الله من يشاؤون ويدخلون فيه من يشاؤون.

دعوا هذا الأمر لله فهو العالم بالصواب وهو غفار الذنوب وهو التواب الرحيم.

أسس
الانفتاح الفكري

سماحة الدكتور الشيخ نبيل الحلباوي
نائب رئيس مجمع السيدة رقية عليها السلام للشؤون العلمية والدراسات العليا

الموضـوع تأسيسـي إذ الانفتاح الفكري -كما سـيظهر مـن آثاره- منطلق كل انفتـاح ثقافي وسياسـي واقتصادي واجتماعي وحضـاري، وهو من ألوان الانفتاح هذه أشبه بما قاله الملا صدرا عن الحركة الجوهرية من أنها أصل كل حركة في الأعراض من الكم والأين والمتى.

لذا كان من الأهمية بمكان أن تقرأ أسسـه ليشـاد بناؤه على أرضية صلبة في حياتنا ووجداننا ونجعل منه الجامع المشـترك بين البشـر تحقيقاً لقيمة دعا إليها الإسـلام ويتبناها العقل وتكبرها الإنسانية ألا وهي التعارف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات]

على أن قيمة التعارف هذه بحاجة إلى بحث آخر، ويكتفى هاهنا بالإشـارة إليها في الكلام.

أجل إن تسـمية الموضوع بأسس الانفتاح الفكري على الرغم من تعرضه للانفتاح الفكري مفهوماً وأهمية وأسسـاً ووسـائل وآثـاراً واتجاهات وضوابط إنما هو من قبيل المجاز المرسـل وهو في فنون البلاغة تسمية المجموع بأبرز أجزائه كما في قولهم (تحرير رقبة) والمقصود تحرير إنسان بكامله من العبودية المقيتة لأن رقبته كانت تثقل بالأغلال وتنوء بها الأثقال.

أولاً: مفهوم الانفتاح الفكري

يتكون المفهوم على أسلوب التركيب الوصفي من كلمتين: الانفتاح والفكر.

أما الانفتاح لغة فهو من الفتح ويقابله الغلق مصدراً واسم الآلة منه مفتاح ومغلاق على وزن مِفعال ويكون مفهوم مصدر الانفعال لكليهما الانفتاح في مقابل الانغلاق، وشتان بين أبواب انفتحت وأبواب انغلقت بل بين آفاق انفتحت وآفاق انغلقت.

وأما الفكر فهو من الكشف مقابل الكفر وهو الستر وأما مفهومه فهو حركة الذهن من المعلومات إلى المجهولات وهي -كما قيل في المنطق- مؤلفة من حركات خمس تختصر في الحدس بثلاث.

ويتضح مما سبق أن هذا التركيب الوصفي (الانفتاح الفكري) إنما يعني في مفهومه استعداد الإنسان لتفهم أفكار الآخرين وتقبّل الصالح منها. والنقاش الإيجابي حولها.

ولعل هذا الانفتاح الفكري أن يكون ذريعة إلى الحكمة التي ندب الإنسان إلى اعتناقها من أي مصدر جاءت باعتبارها خيراً كثيراً ﴿... وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾[البقرة]

بل جعل فنّ اقتطافها من الأفواه قولاً والعقول فكراً والثقافات منهجاً من وظائف الأنبياء في تعليم البشر وتزكيتهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة]

ثانياً: أهمية الانفتاح الفكري

هذه الأهمية تتوزع على جبهتين أو جهتين:

فهي تعني من جهة الخروج من كل ألوان الانغلاق وأدوائه من:

- التقوقع عل الذات: وهو لا يجعل من المتقوقع لؤلؤة في المحارة بل يفقده كل آماله في اللؤلؤية، ويقضي عليه بأن يتعفّن إذ يحرمه أن يجدّد هواؤه ويُنقّي ماؤه.

- والتعصّب: وهو أصل المصائب في تاريخ الخلق؛ فإبليس كان بحسب كلام الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة إمام المتعصبين وقد تعصّب لعنصره إذ قال حسداً لآدم واستكباراً على السجود له بأمر الله {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} واستحق بتعصبه أن يُخرج من الجنة ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا

مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[الأعراف]

والعصبية كما يفهم من الحديث الشريف لسيد الخلق محمد (صلى الله عليه وآله سلم) ليست في أن يرى الإنسان خيار قومه خياراً، ولكن أن يرى شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين.

ولذا نبّه الرسول الأكرم ونوّه محذراً (ليس منا من دعا إلى عصبيته) ومن المؤسف أن العصبية القبلية -التي أراد الإسلام استئصالها من النفوس ليحل محلها التعصب لمكارم الأخلاق وهي قاسم مشترك بين الناس-عادت لتمزق الأمة طرائق قدداً.

ومن ها هنا كان من معاني الانفتاح في المنفتح البراءة من التعصب بكل أشكاله من تعصب لجنس على جنس كالمتعصب للذكر على الأنثى والعكس، وتعصب للّون كالتعصب للأبيض على الأسود والعكس، وتعصب للقومية كالتعصب للعربي على الأعجمي والعكس، وتعصب للشريعة كالتعصب للمسلم على المسيحي والعكس، وتعصب للمذهب كالتعصب للشيعي على السني والعكس.

- والصراع غير المسوّغ: ذلك أن الصراع هو استثناء وضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، والأصل أن يتحاور الخصمان بالفكر ثم باللسان ولا يلجأ إلى الصراع المسلح إلا حيث لا مندوحة ولا فرصة للتفاهم والتوافق.

ومن خصائص المنفتح الخروج من غريزة الاعتداء وليس ثم إلا رد الاعتداء وبمثله ما أمكن

﴿ ... فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة]

وهي تعني من جهة أخرى هاهنا الدخول في :

١ـ التعارف: وقلنا إن هذه القيمة جامعة للبشر بموجب الأصل الواحد الذي صدروا عنه وهي تشمل مجتمعاتهم التي أقاموها ابتداء من الأسرة البشرية الأولى من آدم وحواء على تنوعها شعوباً وقبائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات]

وهكـذا يكون أكرم الناس عند الله وأعلاهـم منزلة من يتقي الله في الأصل الواحد والأسرة الأساس وفي توظيف التنوع الاجتماعي لمزيد من التعارف أي أن يعرف كل الآخر، ولا معرفة ولا تعارف ما لم تقوما على انفتاح.

٢ـ التعايش: ومن التعارف ينطلق الناس إلى مستوى أعلى، هو أن يعيشوا جنبـاً إلـى جنب في أمان واطمئنـان، وبعد عن النزاع والصـراع وبذا يضمن بعضهم لبعض عيشاً أفضل وأمثل.

٣ـ التفاهـم: ويرتقي التعايش ليكون لقاء على فهم مشـترك لأمور كثيرة، ويسهم في تقريب الهوة وتجسير المسافة وجمع الشمل ولمّ الشعث.

٤ـ التعاون: ويسـمو التفاهم من إطاره النظري ليتجلى تطبيقاً عملياً بفنون من التعاون المثمر:

﴿ ... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾ [المائدة]

٥ـ التناغـم: ومن التعاون تنبثـق معارج التناغم بين البشـر فإذا هم على ما يكون لكل نغمة من خصوصيته تتناسـق نغماتهم وتتوافق لتؤلف سـينفونية إنسانية تزخر بحقائق العلم ورقائق الفن وسوامق الدين.

ثالثاً: أسس الانفتاح الفكري

للانفتـاح الفكري أسـس يقوم عليها هي بمثابة الجذور من الشـجرة والدعائم من البناء، وحيث لا تتحقق فلا انفتاح بل فقدان لأرضيته ومنبثقه، ولا يعني ها هنا الادّعاء، فالمدّعون كثير والحقيقة شمس ساطعة تذيب كل جليد الادعاء والمدعين.

وأسس الانفتاح الفكري فئات:

فمنها أسس عقلية:

١ـ إذ العقل أولاً منطلق الانفتاح الفكري فحين يقصى العقل تحضر الغرائز،ولا انفتاح حين تهيمن وتتحكم وتملي على الإنسان الخضوع لغضبه وشهوته.

وثمة جهل يقابل العقل لا العلم وهو أخطر وأعظم فتكاً، ومنه سميت الجاهلية جاهلية وقد أملت قديماً على كل قبيلة ألا ترى في القبيلة الأخرى إلا خصماً تتنازع وإياه على الماء والكلأ وتثور بينهما الحرب الضروس لأدنى سبب وأوهى ذريعة، وحسبك داحس والغبراء وهي حرب امتدت أربعين سنة بادعاء أن حصان قبيلة سبق حصان قبيلة أخرى بحيلة.

٢- ومن خلال العقل تناقش القضايا النظرية فلا يزال يعود بها إلى قضايا نظرية أخرى هي قيد النقاش إلى أن تؤول إلى قضايا بدهية فيخضع العقل لها دون نقاش.

٣- ولا يعوّل في حوار العقل للعقل إلا على الدليل (نحن أبناء الدليل حيثما مال نميل)، وأمتن الأدلة هو الاستدلال البرهاني ﴿...قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة]

٤- وحيث يحضر العقل فلا يجزئ الظن «إن الظن لا يغني من الحق شيئاً»، ولا اتّباع عند العقل إلا لليقين، ولا معنى بعد ذلك للجحود والإنكار إلا بنتيجة العلو والإستكبار ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ... ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

وقد يسمى الدليل العقلي البرهاني اليقيني بالفلسفي، لأن الفلسفة بحث عقلي حر لا يعوّل فيه على مبتنيات سابقة، لا يهدف إلى إثبات أمر أو نقضه، وكل مطلوبه هو الحقيقة.

ولكن هذا البحث لا يخلو لدى الإنسان من مظنة الخطأ، فلا معنى لتقديس جميع النتائج الفلسفية، وآية ذلك أن الفلاسفة انتهوا إلى نتائج يباين بعضها بعضاً ومذاهب ومشارب وتيارات واتجاهات يناقض بعضها بعضاً.

نعم القواعد العقلية لا تقبل التخصيص فإذا انتهى العقل إلى أن (النقيضين لا يجتمعان) فليس يصحّ أن تكون كلتا الفكرتين المتناقضتين صحيحة في أي مورد البتة.

مما سبق يتضح أن العقل يصح أن يُحتكم إليه ابتداء فيما هو في نطاق ما يحيط به وما له سبيل إليه وما لا يعارض أسسه وبدهياته وبرهانه ويقينه.

ومـا دام هذا الاحتكام من جهة، وعدم تقديس كل نتيجة توصل إليها فلاسـفة مختلفـون علـى مدى العصور مـن جهة أخرى مورد توافق، فلـن ينغلق أحد في مقابل أحد وسـتنفتح أبـواب وأبواب لنقاش حر ينبثق منه نـور الحقيقة ويكون ثمّ الاتفاق، وسيعذر بعض الناس بعضاً فيما اختلفوا فيه فلا يكون ثم نزاع ولا شقاق.

ـ ومنها أسس دينية:

١ـ فالديـن وإن كان مـن الله واحداً، بمعنى أن الله لا يقـدم للناس نصوصاً متباينة متناقضة فيما يتعلق بحقائق الكون لأنها من فيضه وهو الحقيقة المطلقة، ولكن الشرائع إنما ترعى ألواناً من التدرج وضروباً من التنوع لتحقيق مصلحة فيما أمر به ونبذ مفسـدة فيما نهي عنه، لتتكامل الصورة التشـريعية الإلهية من لدن الله بما يرسم منهجاً لصوغ الفرد وتواؤم المجتمع.

٢ـ ولكن الدين ـبما هو تجربة بشـرية لكل متدين حتى في أتباع الشـريعة الواحدةـ هو شـيء آخر، فقد تنتمي بعض التجارب إلى الدين الإلهي وقد تكون اجتهاداً بشرياً قابلاً للصواب والخطأ.

٣ـ فإذا أحكم التفريق بين الأمرين السـابقين: الدين من عند الله وكما قدّمه الأنبياء المعصومون، والدين كما فهمه وطبقه بعض المتدينين، فستكون مساحة الانفتاح الفكري أوسـع وسينادى بالمشتركات، ويدعم ذلك أن الأصل الإنساني بحسـب الدين يعيد البشـر جميعاً إلى أسـرة واحدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ...(١) ﴾ [النساء]

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حـــواء

٤ـ وثمة أسس كبرى مشتركة بين الشرائع أو قل هي أسس الدين المشترك، ألا وهي التوحيد فالله واحد لا شـريك له وهو الخالق والرب، والنبوة اصطفاء إلهـي لمبعـوث رباني يوحى إليه وليـس أنه تفرّد بالدين من تلقاء نفسـه نبوغاً وعبقرية وأخلاقاً، وهو محفوف بالعصمة فلا يعصي ولا يخطئ في التبليغ على الأقل، وهو مؤيد بالمعجزة لتصدّق دعواه، والمعاد رجوع إلى الله يبدأ بالموت لكل حي وينتهي بالحساب فالثواب أو العقاب كفاء ما قدمه الإنسان ولن يجزى إنسـان إلا عمله ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ (٤١) ﴾ [النجم]، والمعاد مقتضى قدرة الله وحكمته وعدله.

٥- وحين يدعو الدعاة إلى دين الله أو ما يفهمون من الدين فعليهم أن يتذكروا أن الله قال لنبيه :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية]

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . . . ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

فلننهل من معين الآيات القرآنية وهي تؤيد الأسس العقلية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

فهذه الآية تنوّه وتنبّه إلى قيمة التعارف وما أعظمها من قيمة وما أدلّها على الانفتاح الفكري.

وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة]

والحكمة معرفة غير منصوصة وهي آية التعقل والتأمل وقد علّمها الأنبياء إلى جانب تعليمهم النصوص الدينية الإلهية «ويعلمهم الكتاب والحكمة»

وثمرتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان]

شكر المنعم وهو شكر قائم على ا لمعرفة يقرّب الإنسان من الله في مقامات القرب المعنوي الروحي.

وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[النمل]

فهاهنا تأكيد على الأساس العقلي من رفض أي فكرة ما لم يؤيدها البرهان الاستدلالي وفي ذلك انفتاح عظيم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس]

ورفض الظن أساس عقلي متين كما سبق، وما فرّق الناس إلا ظنون وما يجمعهم إلا اليقين بمراتبه من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر]

وما أعظمه من انفتاح، فالله يبشر المنيبين إليه والمتحررين من سلطة طواغيت يريدون أن يعبدوا من دون الله تجبراً وعتواً

وحين تعتمد هذه الأسس الدينية فسيكون للانفتاح الفكري مداه وآفاقه سواء بين أتباع الشرائع المختلفة أو بين أتباع دين السماء ودين الأرض أو بين أتباع الدين وأتباع اللادين وهذا أسلم للبشرية، وأقوم، وأحكم، ولن يضيق به الناس على اختلاف مواقفهم في الدين ومن الدين.

- ومنها أسس إسلامية:

وهي تنبع من الإسلام كما قوّمه ربه على لسان أنبيائه وأوليائه، وهي تعلي من شأن الحكمة وتجعلها ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

فها هو ذا عيسى عليه السلام يقول (إن الحكمة نور كل قلب) فهل يجدر بإنسان أن يعرض بقلبه عن النور؟

وها هو ذا لقمان الحكيم يقول (يا بني تعلّم الحكمة تشرف، فإن الحكمة تدل على الدين) نعم بالحكمة يشرف الإنسان، وهي تدله على الدين، ولا تبتعد به عنه.

وذاك قول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (كلمة الحكمة يسمعها المؤمن خير من عبادة سنة) وأي تنويه بالحكمة ودعوة إليها أعظم وأكرم.

وهاهو ذا الإمام علي (عليه السلام) يقول: (الحكمة ضالة المؤمن) فيحضّنا على البحث عنها ونشدانها حيث وجدت

وذاك الإمام الصادق (عليه السلام) يقول، وهو في قوله يتوئم الحكمة بالزهد في الدنيا ويجعله تربة صالحة لإنباتها في القلب لتتدفق من ثم على اللسان بتوفيق من الله تعالى.

- وللانفتاح أسس منهجية يقوم بها منهجه بأهدافه وأبعاده وطرائقه ووسائله وهذه الأسس منطلقات ومحدّدات لا غنى عنها وأبرزها.

١- رعاية العلاقة بين الدين والعقل، وليس ثمة تناغم وتلاؤم وتواؤم تقوم عليه علاقة كالعلاقة بين الدين والعقل، والعقل يدعو إلى الدين والدين يستند

إلــى العقــل. «لقوم يعقلون» «لعلكم تعقلون» «أفــلا تعقلون» و(لا دين لمن لا عقل له)، (والنبي عقل من خارج، والعقل نبي من داخل)، والعقل دليل على الله وسبيل إليه، وما أجمل ما قاله الشاعر:

أيصحّ عقلاً أنّ عقلاً مبدعاً قـــــد أبدعته طبيعة بلهاءُ

ومن المؤسف أن يأتي أناس باسم الدين فينفون العقل ويرفضونه وأن يأتي أناس باسم العقل فيزورون عن الدين ويقلونه إلى أن يقول قائلهم:

اثنان أهل الأرض ذوعقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

وليس ثمة حقيقة عقلية يعارضها الدين وليس ثمة حقيقة دينية يمجّها العقل، وكان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عقل الجميع.

نعــم ثمة حقائــق يأتي بها الوحي من لــدن الله لا طريق للعقــل وحده إليها كحقائق ما بعد الدنيا التي جاءت في القرآن الكريم، وهي لا تتعارض مع العقل وإن كانت فوق العقل، ومتى أثبت بالبرهان العقلي أن هذا القرآن ليس من عند النبي وإنما هو من عند الله أذعن العقل لها وصدّق بها.

٢- رعايــة العلاقة بين الدين والعلم: إذا كان الدين من عند الله والعلم صفة ذاتيــة لله وهمــا فيض من لدنه فلا يمكن أن يتعارضــا ولذا لن تجد حقيقة علمية ثابتة يعارضها القرآن الكريم وحسـبك شــهادة عالم طبيب أوربي وهو موريس بوكاي في كتابه (العلم بين التوراة والانجيل والقرآن)، وقولة جورج ســارتون صاحب كتاب (تاريخ العلم) من أن البشــرية لم تســتغن طيلة عمرها عن مثلث هو العلم والدين والفن.

نعــم ينبغي عدم تعصــب المتدينين لفرضية علميــة إذا ظهر بالعلم بطلانهــا، كمــا تعصب بعضهــم لنظريــة بطليموس، وألا يقــوم نزاع وصراع بين الجهات الدينية والعلماء في اكتشــافاتهم وما أســوأ تاريخ التنكيل من قبل بعض ممثلي الدين بعلماء كبار في القرون السالفة، كما فُعل بكوبرنيكس وغاليليو.

ولا يمكن إغلاق الأبواب في وجه العلم والعلماء، ولا طريق إلى تقدم العلم إلا بحرية البحث العلمي وتشجيعه، وكل ما يمكن أن يدقّق فيه ألا يستخدم العلم

فيما يؤذي البشـرية، ويدمّر الأمن العالمي تحقيقاً لمصالح غير مشروعة لقوى طاغوتية مستكبرة.

٣- حفظ الموضوعية في التعامل مع فكر الآخر:

من الأهمية بمكان حين نعرض فكر الآخر لنرد عليه ونناقشـه ألا نحمل عليه ما قيل عنه، وما قوّله إياه سـواه بل ما صرح به وفي مراجعه المعتمدة، وأن تورد النصوص له بأمانة ودون ابتار وانتقاء وتصرف وتطرح أدلته بأحسن ما جاء عنه.

ومن الأمثلة المعاصرة ما قام به العلامة المجدد السـيد محمد باقر الصدر في كتابيه فلسـفتنا واقتصادنا عند عرضه للنظرية الماركسـية على الصعيدين تمهيداً لمناقشـتها، فقد قدم فلسـفتها واقتصادها من نصوصها المعتمدة وبأدلتها المتقنة إلى حيث كان الماركسيون يدرّسون نظريتهم من خلال كتابيه.

٤- عدم نسبة الآراء الشاذّة لدى بعض المدارس الفكرية إلى المدرسة كلها، ففي كل مدرسـة رأي معتمد متفق عليه عند أسـاطينها وأعمدتها الفكرية، وثمة آراء شاذة نادرة جاء بها من ينتمي إلى تلك المدرسة، ولا يوافقه عليها أركانها وأعمدتها من رجالاتها، فلا يليق التمسـك بتلك الآراء الشـاذة المتفردة ونسبتها إلى المدرسة كلها، لأن ذلك التمسك مخالف للإنصاف والموضوعية والانفتاح.

٥- عدم ادعاء الاستئثار بالحقيقة الدينية والمذهبية:

من آداب الانفتاح في حوارات أتباع الأديان والشرائع بل المذاهب في الدين الواحد والشـريعة الواحدة؛ ألا يدعي أحد أنه صاحب الحقيقة الدينية والمذهبية بـلا منازع، وأن الآخر دخيل وشـاذ ومبتدع، نعم لـكل أن يعتقد أن منهجه هو الأسلم والأقوم ولكن بتهذيب وأدب واحترام، وبنقاش علمي موضوعي مستدل فـي المنتديـات العلمية، لا في الشـارع والقنـوات المغرضة اسـتثارة للغرائز وتأجيجـاً للصراع، وأن يكون من الداعي إلى فكرته ولا سـيما الدينية مصداقاً للآيـة الكريمـة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

وقوله تعالـى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله عز من قائل ﴿... وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]

رابعاً: وسائل الانفتاح الفكري

١ـ الحوار الشامل: إن مبدأ الحوار سبيل العقلاء إلى تحقيق قيمة التعارف سعياً إلى التآلف، ويجب إطلاق مختلف ألوان الحوار ومنها:

١) حوار الحضارات: ففي مقابل ما دعا إليه (هينتنغتون) من صراع الحضارات وما ادعاه (فوكوياما) من تفوق الحضارة الغربية وأحادية الحضارة وما يروج له محدودو الآفاق من تفاوت الأعراق والأجناس والشعوب في قابليتها للتحضر، ينبغي السعي بجد وموضوعية وإنصاف إلى كتابة التاريخ الحضاري ليتبين من خلاله مشاركة البشرية في بناء الحضارة، تقدم من تقدم من شعوبها وتاخر من تأخر، نهض من نهض منهم، وتخلّف من تخلّف، وأن مشعل الحضارة لا يبقى بيد شعب أو منطقة جغرافية وأن الحضارة الإنسانية واحدة يشارك فيها الجميع، وتحتاج إلى الجميع، ولم تستقل ولن تستقل بها أمة من الأمم، وعلى الأمم المتقدمة المتطورة أن تفسح المجال وتفتح الأبواب لغيرها للأخذ بأسباب الحضارة والرقي المادي والتقني والفني والعلمي، لأن مردود ذلك سيعود على البشرية جمعاء.

٢) حوار الثقافات: وتستند الحضارات إلى ثقافات تمثل البعد المعنوي والفكري والقيمي والفلسفي لها، وحوار الثقافات حاجة بشرية إنسانية، ومن حوارها ينبثق النور وتتدفق أنهار الحكمة، ولكل ثقافة نكهتها المميزة، ومن اجتماع النكهات تكون النكهة الأحلى.

٣) حوار الأديان: وإذا كان ثمة ثلاث رؤى:

أولاها: أن الدين واحد ولكن الشرائع مختلفة.

ثانيتها: أن ثمة أديانا متنوعة سماوية.

ثالثتها: أن ثمة أديانا سماوية وأديانا أرضية.

فلا ريب في أن الصراع بينها جميعاً لن يثمر ما يثمره الحوار من إيجابيات تنعكس على المنتمين إليها في شتى أصقاع الأرض، بما يقرب الهوة ويقلل المسافة الفاصلة ويوحد الجهود لخدمة المشترك بينها.

٤) حوار المذاهب في الدين الواحد: لن تجد ديناً سماوياً بدون مذاهب، والمذاهب حقيقة قائمة لا يمكن تجاهلها، ولها دواعيها، ومن الحكمة والدين أن يقرّب لا أن يبعّد بينها، وأن تلتمس الوشائج والأواصر لتعزيزها، وأن تقوم العلاقة بين علمائها تحت مظلة الدين الواحد، وبالحوار المخلص الجادّ.

٢- النقاش العلمي في المجامع المتخصصة بين أفذاذ العلماء:

من آفات الانغلاق الفكري أنك تجد في كل علم من يضيق ذرعاً بغير علماء وطنه أو منطقته أو قارته، على الرغم من أن العلم أي علم لم يقم إلا بجهود متضافرة متراكمة على مر التاريخ من علماء ينتمون إلى العالم الواسع. ومن المفيد أن يطلع العلماء في كل علم -كما هو حاصل أحياناً- من مختلف بقاع الأرض على الرؤى والتجارب والإنجازات والابتكارات لتتلاقح وتتناغم وتتفاعل، ويعود خيرها على البشرية كلها ولا يكون ذلك إلا في المجامع المتخصصة وبين أفذاذ العلماء.

وينسحب ذلك على علماء الدين فحيث التقى كبارهم ومراجعهم ومتميزوهم كان للقاء أثر طيب محمود، وحيث ترك الأمر لصغارهم والراغبين في الشهرة والمقتاتين على الصراع منهم، كان الخطر كل الخطر في استفزاز شارع من هنا وشارع من هناك وتحريك الغرائز وتأريث الصراع.

٣- توثيق العلاقات على أساس المشتركات بين مختلف البيئات الفكرية:

والأصل الأصيل لتوثيق العلاقات بين مختلف البيئات الفكرية إنما يقوم على أساس المشتركات بحثاً عنها والتماساً لها ثم إبرازها وتأكيدها وإشاعتها في الناس لتشغلهم عما يوسوس به دعاة الصراع من جوانب الاختلاف والتباين، وليعلم الناس أن الأسرة الواحد لا يتفق فيها الإخوة والأخوات في كل شيء مثلاً، ولكن الأسرة الرائدة هي التي يلتقي فيها أولئك على المشتركات ويغضون الطرف عن سواها فتكون من ذلك علاقات أوثق وأعمق وأونق.

خامساً: آثار الانفتاح الفكري

إذا كان الفكر هو الأرضية والبنية التحتية لكل ما يقوم عليه من النظم

السياسية والاقتصادية والاجتماعية فإن الانفتاح الفكري في المجاميع البشرية ستكون له آثاره الإيجابية على مستوى العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدولية، وبشيء من التفصيل:

١) الانفتاح السياسي: وعلى أساس الانفتاح الفكري سيقوم انفتاح سياسي بين القوى الدولية ومختلف الدول يركز على المشتركات السياسية: كاحترام حق تقرير المصير، وحق كل شعب في التقدم والتطور، ورعاية القيم المشتركة والمصالح المشتركة، ونفي كل ظواهر الاستعلاء السياسي والهيمنة السياسية وما أفرزته من تاريخ الاستعمار البشع وجرائمه والاعتذار عنها والتعويض على الشعوب التي ابتليت بها، وإنهاء الكيانات العنصرية الاحتلالية الاستيطانية.

٢) الانفتاح الاقتصادي: ويقوم كذلك انفتاح اقتصادي، تختفي من أمامه العولمة الاقتصادية وسيطرة الحيتان الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، ويقوم نظام اقتصادي عالمي يفسح للدول الصغرى فضلاً عن الكبرى تحقيق مصالح مشتركة على أساس من الندّية وخير الجميع والإفادة من الاقتصادات الوطنية وتشجيع تطورها والقضاء على ثالوث الفقر والجوع والوباء من العالم.

٣) الانفتاح الاجتماعي: وتتعارف المجتمعات بما لها من تنوع وتشكل معاً صورة عالمية تتوسطها معالم الوحدة وتطرّزها مظاهر التميز وتتلاقى الألوان والأجناس والعناصر والمكونات الدولية والقبلية في لوحة متناسقة منسجمة تقول للتاريخ ها هو ذا العالم كما يحبه الله ويتوق إليه الناس.

سادساً: اتجاهات نحو الانفتاح الفكري

من الواقعية أن نعترف بأن الانفتاح الفكري ليس الاتجاه الواحد السائد في العالم بل ثمة ثلاثة اتجاهات لكل اتجاه منها ممثلوه وداعموه وسنختار الاتجاه الأمثل الأفضل الأجمل.

الاتجاه الأول: رفض الانفتاح الفكري (الانغلاق الفكري)

ولهذا الاتجاه مع الأسف دعاته المتحمسون له قديماً وحديثاً، وطالما تغنى الغرب على لسان أولئك بأنه أرقى نوعاً وعنصراً وقابلية وقال قائله «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»

وحاول بعضهم أن يدّعي زوراً أن العالم ينقسم إلى مستويين، وسوّغ استغلال المستوى المتقدم للمستوى المتخلّف، وكان من الثمار المرة لذلك إبادة الهنود الحمر في الأمريكيتين، واستعباد الأفارقة الأحرار وإزهاق أرواح الملايين منهم لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية في القرون الأخيرة، وإقامة النظام العنصري في جنوب إفريقية والاستعمار الغربي لبلاد العرب وقتل الملايين من الثوار والأحرار، والاحتلال الصهيوني لفلسطين بدعم من الغرب، وما ارتكبه وما يرتكبه من آلاف الجرائم بحق الشعب الفلسطيني قتلاً وتشريداً واضطهاداً، وجرائم ما يسمى بالتحالف الدولي بقادته وعملائه ضد الشعوب في العراق وليبية وتونس ومصر وسورية واليمن والبحرين والسعودية والمؤامرة الكبرى للقضاء على قضية فلسطين وتهويدها حتى عاصمتها القدس الشريف فضلاً عن الحربين العالميتين وعشرات الملايين من ضحاياها، وخطر السلاح النووي بأيدي الغربيين والصهاينة.

الاتجاه الثاني: الانفتاح الفكري الأعمى.

وإذا كان الانفتاح الفكري مطلوباً ومرغوباً ومحبوباً فإن بعضهم انساق فيه إلى أبعد آماده غارقاً في التقليد والتبعية والانبهار بالمجتمعات المتقدمة والدول المتطورة بما يجعله ذيلاً وتبعاً بل عميلاً لها ضد وطنه وأمته وعلى حساب القيم والثوابت، مغرماً بكل جديد ولو كان فيه السم المبيد.

الاتجاه الثالث: الانفتاح الفكري المتبصر.

وينطلق هذا الاتجاه من فرز الثوابت والمتحولات، وعناصر الأصالة وعناصر الحداثة، وما يناغم العقل وما يوائم الهوى، وما يحقق التعارف بين الشعوب والأمم، وما يجعل بعضها مطية لبعض، وما هو من مقتضيات المصلحة المشتركة، وما هو من مقتضيات الهيمنة والاستغلال، وفهم ظاهر الأمور وما وراء الظاهر مما ينطوي على المكر والخديعة والتآمر.

ليحدد على ضوء القراءة الواعية الحصيفة الحكيمة ما يحقق الانفتاح الفكري وما وراءه من انفتاح سياسي واقتصادي واجتماعي بخيره الذي يعم الجميع فيسعى إليه، وما ليس من الانفتاح بل هو من الذل والخضوع والانبطاح فيزَورّ عنه.

وهذا الاتجاه الأخير هو ما ينبغي أن نصرّ عليه وندعو إليه ونثبت أركانه ونشيّد بنيانه، ونجعله رسالتنا إلى فجر البشرية المنشود وغدها الموعود.

مكانة المرأة في نهج البلاغة

الأستاذ الدكتور ناصر علي
عميد كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية في مجمع السيدة رقية عليها السلام

أعطى الإمام علي عليه السلام المرأة حقها الذي يناسبها من التكريم، حيث خلقها الله تعالى أضعف بنيةً من الرجل وغلبتْ عاطفتهاعلى عقلها ؛ لعدم حاجتها إلى أكثر من ذلـك ولقيامها في تصريف أعمال بيتها وتحمّل أعباء الولادة ورعاية أطفالها، وهذا ليس إنقاصًا من مكانتها ؛ولهذا رحمةً بها جعل اللهُ تعالى الرجال قوّامين على النسـاء، قال : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ ...(٣٤) ﴾. [النساء]

الرجـل قيِّم على المرأة فيما يجب لها عليه، يقال : هذا قيّم المرأة وقِوامها، قال الأحوص :

اللهُ بيني وبين قيّمها يَفِرّ منـــي بها وأتَّبِعْ

جعـل الله تعالى ذلك للرجال ؛ لفضلهم في العلْم والتمييز ولإنفاقهم أموالهم في المهور وأقوات النساء، والصالحات قانتات، أي : يحفظن حقوق أزواجهن بمـا حفـظ الله، أي: بالشـيء الذي يحفظ أمـر الله، واللاتي تخافون نشـوزهن فعظوهن، اشتقاقه من النشز وهو المكان المرتفع من الأرض، ونشزت المرأة: اسـتعصت على زوجها إذا ضربها وجفاها فهي ناشـز عليه، واهجروهن في

المضاجـع، أي : فـي النوم معهن والقرب منهن، فإنهن إنْ كُنّ يحببن أزواجهن شـقّ عليهن الهجران في المضاجع، وإن كنّ مُبْغِضات وافقهن ذلك فكان دليلًا علـى النشـوز منهن، والهجر والهجـران: ترْك ما يلزمك تعهُّـدُه، وعظوهن : مـن العِظة، أي : تذكيـرك إياها الخير ونحوه مما يرقّ له قلبها، فأمر الله تعالى ان يُبْـدأ بالموعظة أولًا ثم بالهجران بعدُ فـإن لم ينجعا فيهن فالضربُ ولكن لا يكون ضربًا مبرحًا، فإن أطعْنَ فيما يُلتمَس منهن فلا يبغى عليهن سـبيلًا، أي : لا يُطلَـب عليهن طريق عنت . [معاني القرآن وإعرابـه للزجّاج، بيروت ١٩٨٨ م ٢/٤٧ـ ٤٨ وترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، إيران ١٤١٤ ه.ق (نشز) ٣/ ١٧٩١ و (هجر) ٣ / ١٨٦٩ و(وعظ)٣ /١٩٦٦]

المقصود هنا مطلق المرأة لكنها إذا صلحت فاقت أغلب الرجال .

كان الإمام علي عليه السلام يسير في هذا على نهج الرسول الذي كرّم النساء،قال صلى الله عليه وآله : (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسيّة امرأة فرعون) [صحيح مسلم بن الحجاج، الرياض ١٩٩٨ م ص ١٠٦٩]

قال عبد الله بن جعفر: سمعت عليًا عليه السلام بالكوفة، يقول : (سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد، وأشـار وكيع إلى السماء والارض) أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير – ها – في (نسائها)، أي: كل مَن بين السماء والأرض، والأظهَر أنّ معناه أنّ كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها. [صحيح مسلم ص ١٠٦٩]

كذلك بشـر الرسول صلى الله عليه وآله خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة. [صحيح مسلم ص ١٠٧٠]

وعنه: (ابنتي فاطمة بضعة مني يَريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها).[صحيح مسلم ص ١٠٧٦]

كـذا زينب بنت علي بن أبي طالـب عليها السلام المعروفة بتضحياتها مع أخيها الحسين عليه السلام .قيل: (خير نساءٍ ركبن الإبل، قال أحدهما : صالحُ نساء قريش، وقـال الآخر : نسـاء قريش أحنـاه على يتيم في صغره وأرعـاه على زوج في ذات يده) الحانية على وُلْدها : التي تقوم عليهم بعد يُتْم فلا تتزوج، فإن تزوجت

فليست بحانية، والمعنى : أحناهنّ . [صحيح مسلم ١١٠٨]

كان الرسول يوصي بالنساء عمومًا خيرًا، قال ﷺ : (استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عَوانٍ) العاني : الأسير [سنن ابن ماجه، القاهرة ١٩٥٢ م ١ / ٥٩٤ ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، بيروت ١٩٩٦ م ص ٥٩١] كما قال ﷺ يكني عن المرأة عامة بالقارورة : (رفقًا بالقوارير) وهي كناية حسنة، والقارورة : إناء يَقِرّ فيه الماء . [النهاية في غريب الحديث والأثر للمبارك بن محمد الجزري، القاهرة ١٩٦٣ م ٤ /٣٩ والكناية والتعريض للثعالبي، القاهرة ١٩٩٧ م ص ٧٠ وجمهرة اللغة لابن دريد، بيروت ١٩٨٨ م ٢/١٢٠٦]

وعنه ﷺ: (ويحكَ يا أنجشة !رُويدًا سَوقك بالقوارير) . إنّ النبي ﷺ أتى على أزواجه وأنجشة رجل سَوّاق يسوق بهن، فأمره بالرفق بهنّ. [صحيح مسلم ص ١٠٢٥]

قال ﷺ : (النساء لا يُحشَرْن) أي :لا يخرجن إلى الغزو؛ رفقًا بهن؛ لأنهن لايحتملن أعباء الغزو ولا يستطعن الصبر على ذلك، وفي هذا المعنى قال الإمام علي عليه السلام :(جهاد المرأة حُسن التبعّل)، أي : إطاعة زوجها . [نهج البلاغة، وهو ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، دار التعارف، بيروت من دون تاريخ ص ٤٥٧]

إنّ أحسن مثال على اتّباع المرأة عاطفتها وتغييب عقلها من دون قصد سوء ما حصل مع السيدة زليخة امرأة عزيز مصرويوسف النبي عليه السلام في مراودته، قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف]

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]، ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

كيد النساء عظيم لكن زليخة لم تقع في الحرام مع أنها ويوسف عليه السلام همّا ببعضهما إلّا أنه عندما رأى برهان ربه لم يقع في الفحشاء هو وزليخة التي رزقها الله تعالى الزواج منه بعد وفاة زوجها الأول عزيز مصر .

هذا دليل على عاطفة المرأة بصورة عامة وهي تغلب عقلها، هكذا خلقها تعالى؛ لحكمةٍ وكذلك بنية جسمها أضعف من بنية جسم الرجل،ففرض الله تعالى أن يكون الرجال قوامين على النساء، لكن المرأة إذا أُصلح أمرها تكون من أحسن الناس أعمالًا وأخلاقًا.

إنّ أوضح دليل على ذلك ما قاله الإمام علي عليه السلام عند دفن سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام :

-(السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري ورقّ عنها تجلّدي)[نهج البلاغة ص ٤٥٧]

- كما قال عليه السلام في ذمّ أصحاب الجمل ؛ لعدم احترام السيدة عائشة : (فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تُجَرّ الأَمة عند شرائها متوجهين بها إلى البصرة، فحبسا نساءهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهما ولغيرهما في جيشٍ ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة غير مكْره) [نهج البلاغة ص ٣٦٨] حبيس :فعيل بمعنى : مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت محبوسة لرسول الله لا يجوز لأحد أن يمسها بعده وكأنها في حياته، فدافع عليه السلام عنها وأرجعها معززة مكرّمة إلى مدينة رسول الله موطنها .

قال عليه السلام في وصية له لعسكره قبل لقاء أعدائه :

-(لا تَهيْجوا النساء بأذى وإن شتمنَ أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القُوى والأنفُس والعقول، إنْ كنا لنُؤْمَر بالكفّ عنهن وإنهن كمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفِهْر والهِراوة فيُعيَّر بها وعقبُه مِن بعده)[نهج البلاغة ص ٥٢٥]

الفهر – بكسر الفاء - :الحجر على مقدار ما يدق به الحور أو يملأ الكف،

والهراوة - بكسر الهاء – العصا أو شبه الدبوس من الخشب، و(عليه) عطفٌ على ضمير (فيعيّر) .

هذا حكم الشريعة الإسلامية لا يتوهمه جاهلوها من إباحتها التعرض حتى لأعراض الأعداء -نعوذ بالله - .

قال عليه السلام يوصي بالإماء فضلًا عن الحرائر :-(ومَن كان مِن إمائي اللاتي أطوف عليهن ولهن ولد أو هي حامل فتُمْسِك على ولدها وهي من حظه، فإن مات ولدها وهي حية فهي عتيقة قد أُفرِج عنها الرقّ وحررها العتق) [نهج البلاغة ص ٥٣٣]

- (بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجْلها وقُلْبها وقلائدها ورعاثها فلا تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام) [نهج البلاغة ص ١٢٠]

قاله عليه السلام يذمّ قومًا ظلموا النساء، والمعاهِدة : الذمّيّة، والحجل : خلخالها، والقُلب : سوارها، والرعاث : جمع رعثة بمعنى القُرط .

-(أما بنو مخزوم فريحانة قريش، نحب حديث رجالهم والنكاح في نسائهم) [نهج البلاغة ص ٦٧٥] يريد الزواج منهن .قال عليه السلام في وصيته إلى سلمان الفارسي:-(لاتجعل عِرضك غرضًا لِنيال القول)[نهج البلاغة ص ٦٣٦] عرضه : زوجته وأهل بيته، يوصيه ألا ينال الناسُ عرضه بمكروهٍ .كان عليه السلام يسير على خُطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تكريم المرأة:

- (لقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثرأُمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علَمًا ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يُجاور في كل سنة بحِراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيتٌ واحد يومئذ في الإسلام غيرَ رسول صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوة) [نهج البلاغة ص٤٣٤] حراء: جبل قريب من مكة المكرمة .

كيف لا يكون الإمام عليه السلام عطوفًا على المرأة الصالحة، وقد قال : (إنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة يستضيء به مَن ولجها) [نهج البلاغة ص ٤٠٧]

لم يكن رأيه في النساء صادرًاعن تعصب جنسي، فإن المعركة لم تكن قد

نشـبت بعدُ بين النسـاء والرجال، وما كان علي عليه السلام ليتعصب، وهو الذي ذم العصبيـة وردّ أصلهـا إلى تعصب إبليس اللعين للنور ضـد الطين . [نهج البلاغة المقدمة ص ٣٠]، قال عليه السلام: (أما إبليس فتعصب على آدم لأصله وطعن عليه في خِلْقته، فقال : أنا ناري وأنت طيني)[نهج البلاغة ص ٤٢٨]

يكفـي من تكريمـه حواء عليها السلام أنها لم تُغْر آدم عليه السلام أو تجبره على الاكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها،وإنما تبعته فحسب وأطاعته ؛ لأنه زوجها، فقال علي عليه السلام في ذلك :

(أسـكن سـبحانه آدم دارًا أرغد فيها عيشـته ... وحذره إبليـسَ وعداوته، فاغترّه عدوه نفاسـةً عليه بدار المُقام ومرافقة الأبرار فباع اليقين بشـكّه ... ثم بسط الله سبحانه في توبته ولقّاه كلمة رحمته)[نهج البلاغة ص ٧٤ – ٧٥]

كما قال عليه السلام قولًا قريبًا من هذا في نهج البلاغة ص ٢٢٧،وهو في معناه.

انتهز الشـيطان من آدم غرّة فأغواه ؛ حسـدًا له على الخلود في دار المقام ومرافقة الأبرار من الملائكة الأطهار وأدخل الشـك عليه في أنّ ما تناول منه سـائغ بعد أن كان في نهي الله له عن تناول ما يوجِب عليه اليقين بحظره عليه وكانت العزيمة الوقوفُ عند ما أمر اللهُ، فخالف.

(بلغتـم من كرامة الله لكم منزلةً تُكْرَم بها إماؤكم)[نهج البلاغة ص ٢٥٥] فكيف الحرائر ؟!

أمـا ماذكره عليه السلام في نهج البلاغة مما ظاهره ذم النسـاء فليس كذلك إنما أراد ذم المتبرجـات المغرِيات بحسـنهن والذهـاب وراء عواطفهن، أما ذوات التمسـك بالديـن فلسـن منهن، فهو على نهج الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم الذي قـال : (إياكم وخضراء الدِّمَن) فسّره صلى الله عليه وآله وسلم، فقال :

(المرأة الحسناء في منبت السوء)[مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٨٥]

كذلـك من إغراءا ت المـرأة بجمالها، قول الإمام عليه السلام وكان جالسًـا مع أصحابـه فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقهـا القوم بأبصارهم، فقال عليه السلام : (إنّ أبصـار هذه الفحول طوامح وإن ذلك سـبب هَبابها فإذا نظـر أحدكم إلى امرأة فليلامـس أهلـه فإنما هي امرأةٌ كامـرأةٍ) [نهج البلاغـة ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥] يقال :طمح

البصـر : إذا ارتفع، وطمـح : أبعدَ في الطلب، وإن ذلك، أي : طموح الأبصار سبب هبابها – بفتح الهاء – الأولى – أي :هيجان هذه الفحول لملامسة الأنثى .

لذلـك قال الرسـول ﷺ: (عليك بذات الدين تربتْ يداك)[مفـردات ألفاظ القرآن ص١٦٥]

تنبيهًاعلـى أنـه لا يفوتنّـك ذات الدين فلا يحصل لك مـا ترومه فتفتقر من حيث لا تشـعر، كما قال ﷺ: (تُنكَح المرأة ؛ لأربع: لِمالها ولحسـبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) [صحيح مسلم ص ٦٢٤]؛ لذا قال الإمام عليه السلام عن الرسـول ﷺ: (لأنا أول مَن صدّقه)[نهج البلاغة ص١٣٩] إنّ الذي ذكره في نهج البلاغة عن النساء خيرلهن و أراد أنْ يتعامل الناس معهن على أساس أنّ العاطفة تغلب على العقل عندهن في أصل الخِلْقة والتكوين النفسي، لكن التربية الصالحة والتوجيه الحسـن لهن يعدّانهن أحسن الإعداد،فالمرأة نصف المجتمع ولا رجـال من دون النسـاء؛ لأن المـرأة تمثل الأم والابنـة والزوجة والأخت والجـدّة والحفيـدة، أما ما قاله مما يبدو في ظاهره أنـه ذمّ فليس كذلك إنما هو على سبيل القول المستملَح ومخاطبة النساء على قدر عقولهن وغلبة عواطفهن، وقد سـبقه إلى ذلك الرسـول ﷺ حين قال للسـيدة حفصة رضي الله عنها :(إنكن لأنتن صواحب يوسف) [صحيح مسلم ص ١٧٨] يقصد بـ (صواحب) قصة السيدة زليخة مع النبي يوسف عليه السلام ، فهذا ليس ذمًّا بل من مستَملَح الكلام .

سـأذكر فيمـا يأتي- إضافة لما سـبق- ما قاله الإمـام علي عليه السلام في نهج البلاغة وأبيّنه بناء على ماقدمتُ ؛ ليتضح الأمر للقارىء الكريم :

-(أمّا بعدُ يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمرأة الحامل حملتْ فلما أتمّتْ أملصتْ ومـات قيّمهـا وطال تأيُّمها وورثها أبعدُها) [نهج البلاغة ص ١٦٩ – ١٧٠] أملصت : ألقـت ولدهـا ميتًا، وقيمها : زوجها، وتأيمهـا : خلوّها من الأزواج، يريد مثلهم مثل المرأة الحامل لمّا أتمت أشـهُر حملها ألقت ولدها من غير دافع طبيعي بل بالحادث العارض كالضربة والسـقطة، وقلمـا تلقيه كذلك إلا هالكًا ومات على هذه الحالة زوجها وطال ذلّها بفقدها مَن يقوم عليها حتى إذا هلكتْ من غير ولد ورثها الاباعد السـافلون في درجة القرابة ممن لا يُلتفت إلى نسـبه ؛ لأن المرأة

تـرث إذا كانت ذات ولـد موجود،فإذا مات الولد ضاع حقها وصار للأباعد من أقربائها،فهذا ليس ذمًّا لها .

-(معاشـر النـاس إن النسـاء نواقص الإيمـان نواقص الحظـوظ نواقص العقـول، فاما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن، وأمـا نقصان حظوظهن فمواريثهن علـى الأنصاف من مواريث الرجال، وأما نقصان عقولهن فشـهادة امرأتين كشـهادة الرجل الواحد، فاتقوا شـرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر)[نهج البلاغة ص ١٨٠- ١٨١]

خلق الله تعالى النسـاء وحمّلهن ثقل الولادة وتربية الأطفال إلى سـن معينة فلا تكاد تنتهي هذه المرحلة حتى تستعد لحمل وولادة، وهكذا، فلا يكدن يفرغن من الولادة والتربية فكأنهن قد خُصصن لتدبير أمر المنزل وملازمته وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن، فخلق الله تعالى لهن عقولًا بقدر ما يحتجْن .– ولم يكن ذلك عيبًا فيهن – وجاء الشرع مطابقًا للفطرة فكنّ في أحكامه غير لاحقات الرجال لافي العبادة ولا في الشهادة ولا في الميراث .أما نقص الإيمان فـلا يقصـد الإمـام عليه السلام قدحًا أو ذمًا للمـرأة ؛ لأن الحيض فيـه متاعب ؛ لذا أعفيتْ فيه من الصلاة أما الصيام فتقضيه بعد انتهاء السـبب المذكور، وقد قال الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم كناية عن النسـاء الحائضات : (نُؤمَر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[صحيح مسلم ص ١٤٩] وقال صلى الله عليه وآله وسلم :(اقعدي أيام إقرائكِ)[مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٦٨ وسنن أبي داود، بيروت رقم ٢٩٧، أي :أيام حيضك].

أما نقصان حظوظهن في الميراث حيث أُعطين نصف ما أُعطي الرجال ؛ لأنهم قوّامون على نسائهم يصرفون عليهن فنصف الميراث كافٍ لهن يقضين به أغراضهن الخاصة مما لا يتعلق بمصاريف المنزل، فإن صرفْنه في متطلبات منازلهن فذلك فضل منهن يُثَبْن عليه .

أما جعل شـهادة امرأتين كشـهادة رجل واحد ؛ فـلأن المرأة عاطفية تتأثر بمحيطهـا فتغلـب عاطفتُهـا عقلَها إذا أُغريـتْ، وهذا ليس عيبًا بهـا، فهي ربة منزل بالدرجة الأولى، والشهادة من اختصاص الرجال أصلًا، فإذا تطلَّب الأمر

شــهادتها فتعدّ شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد؛ للسبب المذكور ؛ لذا لم نسـمع أنّ الله تعالى اختار من بين أنبيائه امـرأة ؛ لغلبة عاطفتها والنبوة تحتاج إلــى رجل ذي عقل متزن يد بّرالأمور ويرشـد الناس إلــى عبادة الواحد الأحد وتحمّل الأذى من المشـركين وهذا أمر لا تطيقه المرأة فأُعفيَت من ذلك ؛رأفة بها .

أمــا قوله عليه السلام: (ولا تطيعوهن بالمعروف) لا يريـد أن يترك المعروف لمجـرد أمْرهن به، فإنّ فــي ترْك المعروف مخالفة السـنّة الصالحة خصوصًا إذا كان المعـروف مـن الواجبات بل يريـد أن لايكون المعـروف صادرًا من مجرد طاعتهن، فإذا فعلتَ معروفًا فافعله ؛ لأنه معروف ولا تفعله امتثالًا لأمر المرأة، ولقد قال الإمام قولًا صدقتْه التجارب في الأحقاب المتطاولة ولا استثناء مما قال إلا أنّ بعضًا منهن وُهبْن فطرة تفوق في سـموّها ما اسـتوتْ به الفِطَر أو تقاربت أو أخذ سلطان من التربية طباعهن على خلاف ما غرز فيها وحوّلها إلى ما وجّهتها الجِبلّة، أي : الخِلقة إليه، فكما أنّ هناك شِـرارًا من الرجال فإنّ هناك شرارًا من النساء أيضًا ؛ لكنّ منهن الصالحات في كل زمان ومكان .

-(النســاء همّهن زينة الحياة الدنيا والفســاد فيها) [نهج البلاغة ص ٣٢٩] يقصد أصْلهنّ الفطري وهذا يصلح بتربيتهن تربية حسنة.

قال في وصيته لابنه الحسن عليه السلام :

-(إياك ومشــاورة النســاء فإنّ رأيهن إلى أَفَن وعزمهن إلى وهن،، واكففْ عليهن أبصارهن بحجابك إيّاهن، فإنّ شِدة الحجاب أبقى عليهن، وليس خروجهن بأشدّ من إدخالك مَن لا يوثَق به عليهن وإن استطعتَ أنْ لايعرفن غيرك فافعل، ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوزَ نفْسها، فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ولاتَعْدُ بكرامتها نفْسَــها ولا تُطْمعها في أن تشفع في غيرها) [نهج البلاغة ص ٥٦٥] الأفن : ضعف الرأي، والوهن : الضعف عامّة، فإذا أدخلْت على النساء مَن لا يوثــق بــه فكأنك أخرجتهن إلى مختلط العامة، فأيّ فـرق بينهما ؟ والقهرمان: الــذي يحكم فــي الامور ويتصرف فيهــا بأمره، ولا تعْدُ – بفتح التاء وسـكون العين وضم الدال – أي :لا تجاوِز بإكرامها نفْسَــها فتكرم غيرها بشفاعتها، أين

هذه الوصية من حال الذين يصرفون النساء في صالح الأمة ؟ بل ومَن يختص بخدمتهن كرامةً لهن ؟

-(المرأة عقرب حلوة اللِّبْسة) [نهج البلاغة ص ٦٦٢] اللبسة – بكسر اللام - : حالة من حالات اللُّبس – بضم اللام – يقال : لَبِسْتَ فلانة، أي : عاشرْتَها زمنًا طويلاً، والعقرب لا تحلو لبستها أما المرأة فهي هي في الإيذاء ؛ لكنها حلوة اللبسة، فالحلاوة تعقيب على الإيذاء ومحْوٌ لأثره ولولا هذه الحلاوة ما تكاثر النسل وعُمِّرت الأرض بالحلال الموافق للدين والفطرة الصالحة، فلا غنى عن المراة الزوجة .

-(يأتي على الناس زمان يعدّون الصدقة غُرْمًا وصلة الرحم مَنًّا والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون السلطان بمشورة النساء وإمارة الصبيان) [نهج البلاغة ص ٦٧٠] لأن المرأة تدير الأمور بعاطفتها أكثر من عقلها، فتقع في المحذور، وهذا ليس عيبًا بها إنما هي إرادة الله تعالى ؛ لذا ينبغي تجنيب المراة مما لم يخلقه الله تعالى فيها، فالسلطان للرجال يدبرونه بعقولهم،فإذا تولّوا ذلك استقامت أمور الأمة .

-(غَيرة المرأة كُفر وغيرة الرجل إيمان) [نهج البلاغة ص ٦٧٧] أي :تؤدي إلى الكفر؛ لأنها تحرّم على الرجل ما أحلّ الله تعالى له من زواج متعدّداتٍ، أما غيرة الرجل فتحريم لِما حرمه الله تعالى وهو الزنا، لكن غيرتها الموافقة للدين وخوفها على زوجها من أَخْذه منها ومَيل قلبه عنها وعدم عدله بين زوجاته ؛ لقوله تعالى :﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ...﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء] وقوله تعالى : ﴿ ...فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ...﴿٣﴾ ﴾ [النساء] جعلها ذلك تخاف .

أما تفسير غيرة الرجل بالإيمان وذلك بمنع تعدد الأزواج على المرأة الواحدة تجنبًا لاختلاط مياه عدة رجال في رحمها فلا يُعرف نسب المولود إلى أيّهم فمنع تعالى ذلك تحصينًا للنسب وبُعدًا عن الحرام، فغيرة المرأة غير الصالحة تدخل في الكفر أما الصالحة فقد حصّنها إيمانها.

- (خيار خصال النساء شِرار خصال الرجال : الزهو والجُبْن والبخل)[نهج البلاغة ص٧٠٠] الزهو – بفتح الزاي - : الكِبْر، فإذا كانت المرأة مزهوّة

لـم تمكِّن من نفْسـها، وإذا كانـت جبانة فرِقتْ، أي : فزعتْ من كل شـيء يَعْـرِض لها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومـال زوجها .لا يكون الزهو عنـد المرأة الصالحة ؛ لذا يجب إصلاح غيـر الصالحة وتخليصها من هذا التكبّر المخالف للأعراف السليمة، فإذا صلحتْ فبها ونعمتْ وإذا كان العكس فـلا تُـلام عليه ؛ لأن ذلك مخلوق في فطرتها، أمّـا بخلها فهو لحفْظ أموالها وأموال زوجها ويستحسـن إرشـادها وتوجيهها إلى الصواب، وهي مطيعة إذا أُحسِن ذلك التوجيه .

- (المرأة شـرّ كلها وشـرّما فيهـا أنّه لابدّ منها) [نهج البلاغـة ص ٧٠١] لأنها عاطفية تميل مع عاطفتها وتلحق المغريات، لكنها إذا صلحت تخلصتْ من هذا الشـرّ، ومع ذلك لايُسـتغنى عنها في جميع الأحوال زوجة شريكة للرجل ؛ لذا أضـاف عليه السلام، فقـال : (أنه لابد منها) فعمم على جميع النسـاء، وهذا من باب استملاح القول، والحاجة إلى المرأة مطلوبة في كل أحوالها .

قال عليه السلام في حديثه أنه شيَّع جيشًا يُغْزيه :

-(أَعْذِبوا عن النسـاء ما اسـتطعتم)[نهج البلاغة ص ٧٠٨] قال الرضي: معناه: أَصدِفوا عن ذكْر النساء وشَغْل القلب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن ؛ لأن ذلك يَفُـتّ في عضد الحميّة ويقدح في معاقد العزيمة ويكْسِـر عن العَدْو ويَلْفِت عن الإبعاد في الغزو، وكل مَن امتنع من شيء فقد أعذب عنه،والعاذب والعذوب : الممتنع من الأكل والشرب.

الفـتّ : الدَّق والكسـر، وفـتّ في سـاعده : أضعَفه كأنه كسـره، ومعاقد العزيمة: مواضع انعقادها وهي القلوب، وقدح فيها بمعنى : خرقها، وهي كناية عن أوهنها، والعدْو : الجري، ويكسر عنه: يقعد عنه .

يريـد عليه السلام أنّ ذكْر النسـاء وشـغْل قلوب الرجال بهن فـي أوقات الغزو ومحاربـة الأعداء يقلل من عزيمة الجيش ولكنْ لذلك وقته بعدما تهدأ الحروب وينتهي الغزو وتثبت راية الإسلام،فلا مانع مما نهى عنه عليه السلام ؛لأنه لابد منه ولا يمكن الاستغناء عنه .

إنّ المراة تحتاج إلى وليّ من الرجال من أولي العَصَبة، لأنها خُلقت ضعيفة

يلزمهـا مَن يحميهـا،ولا يُعدّ هذا ذَمًّا لها بل الهدف منه حفْظها،وفي هذا المجال قال عليه السلام:

-(إذا بلغ النساء نَصَّ الحِقاق فالعصبة أولى)[نهج البلاغة ص ٧٠٦ – ٧٠٧]

قال الرضي: النَّصّ: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السَّير؛ لأنه أقصـى مـا تقدر عليـه الدابة ... فنص الحقـاق يريد بـه الإدراك ؛ لأنه منتهى الصغـر، والوقـت الذي يخرج منـه الصغير إلى حد الكبيـر - وهو من أفصح الكنايات في هذا الأمر – فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبةُ أولى بالمرأة من أُمها إذا كانوا مَحْرَمًا وهم الإخوة والأعمام وتزويجها إذا أرادوا

ذلـك، والحقـاق : مُحاقّة الأم للعصبة في المـرأة، وهو الجدال والخصومة وقولُ كل واحد

للآخـر: أنـا أحَقّ بهذا منـك ... وقيـل : إنّ نص الحقاق بلـوغ العقل وهو الإدراك؛ لأنـه عليه السلام أراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام، ومَن رواه : نـصّ الحقائـق فإنما أراد جمْـع حقيقة... والذي عنـدي أنّ المراد بنصّ الحقاق ههنا: بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها

وتصرّفها في حقوقها تشبيهًا بالحقاق من الإبل، وهي جمْع حِقّة وحِقّ، مما اسـتكمل ثلاث سـنين ودخل في الرابعة وعند ذلك يبلغ إلى الحد يُتَمكَّن فيه من ركوب ظهره ونَصِّه في السَّـير، والحقائق أيضًا: جمْع حِقّة، فالروايتان جميعًا ترجعان إلى معنى واحد .

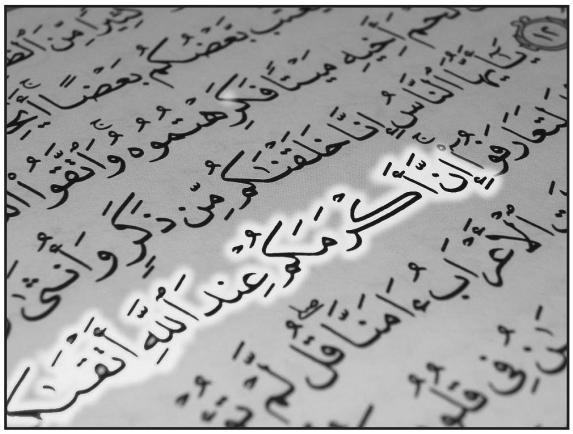

المركزية الإدارية وتطبيقاتها

Centralisation administrative، applications

الدكتور سعيد نحيلي
مدرس في مجمع السيدة رقية عليها السلام

مقدمة

يتطلب إنجاز المهام الإدارية المتعددة والمتشعبة التي تقع على عاتق الدولة توافر جهاز إداري مسلّح بالعنصرين البشري والمادي .

وإذا كان واضحاً أن الإدارة تظهر في علاقتها مع المواطن من خلال عمالها وهيئاتها، إلا أن هذا يشكل ظاهر الحال فحسب، أما الحقيقة فهي أن التصرفات التي يقوم بها عمال الإدارة (الموظفون) ينبغي أن تنسب إلى واحدٍ من مجموعة الأشخاص الإدارية العامة التي تشكل بمجملها التنظيم الإداري (organisation administrative)[1]. ولا يختلف اثنان على أن التنظيم الإداري يعتبر ضرورة لابد منها لكي تنهض الإدارة بوظائفها وتضطلع باختصاصاتها من اجل تحقيق أهدافها. وإذا كان التنظيم الإداري للدولة يتضمن العديد من الأجهزة الإدارية، بيد أن هذا التعدد لا يتبعه بالضرورة تعدد في الأشخاص الإدارية العامة، بل يختلف الأمر باختلاف الأسلوب المتبع في التنظيم الإداري. ويجمع الفقه الإداري على أن الدولة تمارس نشاطها الإداري وتدير الخدمات العامة باتباع أي من أسلوبي التنظيم الإداري: المركزية الإدارية واللامركزية الإدارية.

١- يحتل موضوع التنظيم الإداري أهمية كبيرة في دراسات علم الإدارة العامة إذ يعتبر بجانب التخطيط والرقابة والتوجيه واحداً من عناصر العملية الإدارية الذي بواسطته تمارس نشاطها وعن طريقه تحقق أهدافها .

فإذا أخذت الدولة بأسلوب المركزية الإدارية فإن هذا يعني أن هناك شخصا إداريــا عاما واحدا يمارس جميع الاختصاصات الإدارية في جميع أجزاء إقليم الدولة. بعبارة أخرى: فإنه لا يوجد في النظام الإداري المركزي سوى شخصية اعتبارية واحدة في الدولة هي شخصية الدولة[1] ذاتها.

أما إذا أخذت الدولة بأسـلوب اللامركزية الإدارية فإنه توجد شخصيات إدارية عامة أخرى إلى جانب شـخصية الدولة سـواءً كانت هذه الشـخصيات ذات طبيعة محلية (وحدات الإدارة المحلية) أو ذات طبيعة مرفقية (المؤسسات والهيئات العامة).

وينبغـي أن لايفهـم ممـا سـبق أنه علـى الدولـة أن تختار بين الأسـلوبين (المركزية واللامركزية) من أجل ممارسـة نشاطها، وذلك أنه لا توجد دولة في العصر الحديث تمارس جميع وظائفها بشكل مركزي فحسب أو بشكل لامركزي فحسب، بل تأخذ الدول المعاصرة بكلا الأسلوبين في أداء وظائفها، بحيث تدير جزءاً من نشـاطها وفـق مقتضيات المركزية الإدارية بينمـا تدير الجزء الآخر وفـق مقتضيـات اللامركزية الإداريـة. بيد أن تغليب الأخذ بأسـلوب المركزية الإدارية أو أسـلوب اللامركزية الإدارية يعتبر مسـألة نسـبية تختلف من دولة أخـرى، بل يختلف ضمن الدولة الواحدة من زمن لآخر. وتتحكم بذلك مجموعة من الظروف السياسـية والاجتماعيـة والثقافية والتاريخية .كما تلجأ دول عالمنا المعاصر إلى إجراء نوع من الموازنة بين محاسن ومساوئ الأسلوبين في أداء الخدمات العامة لجهة كلفة الخدمة وجودتها وزمن إيصالها للمنتفعين بها.

وكما هو واضح مما سبق فإن الأمر يدور حول مجموعة من المصطلحات الإداريـة القانونيـة التي يتم تداولها واسـتخدامها في الأوسـاط العلمية دون أن يكون هناك وضوح للمدلول الحقيقي لكل مصطلح . فالاقتصاديون يسـتخدمون مصطلح المركزية الإدارية والإداريون يسـتخدمونه والسياسـيون والقانونيون أيضا، وكل فئة من هؤلاء تفهمه من وجهة نظرها بشكل مختلف عن الأخرى،

١- يفّـرق الفقه الدسـتوري بين شـكلين للـدول : الدول الموحدة والـدول الاتحادية .ويؤكد علـى أن الدولة الاتحادية تتألف من مسـتويين : مستوى الاتحاد والدويلات وكلاهما يعد دولة بالمعنى الدستوري .الأمر الذي يدفعنا للقول إن الدولة الاتحادية التي تأخذ بالنظام الإداري المركزي تتألف من مسـتويين إداريين اثنين هما : الإدارة الاتحادية و إدارة الدويلة .

الأمر الذي يشكل دافعاً للبحث في هذا الموضوع بغية إظهار مدلوله الحقيقي .

وسوف يتم التركيز في هذا البحث على الجوانب القانونية للمركزية الإدارية وتطبيقاتها العملية، الأمر الذي يقتضي تعريفها وبيان أركانها وتقديرها ومن ثم تطبيقاتها العملية سواءً في سوريا أوفي غيرها من الدول.

أولاً :- تعريف المركزية الإدارية La centralisation administrative وتمييزها من غيرها من المفاهيم :

هناك شبه إجماع في الفقه الإداري على أن المركزية الإدارية تعني التجميع التنظيمي والوظيفي للمهام الإدارية بيد جهة واحدة وفق معايير محّددة مسبقاً. فالمركزية الإدارية تعني بعبارة أخرى حصر صلاحيات القرار وتجميعها في يد سلطة واحدة رئيسة تنفرد بالبت في جميع الاختصاصات الداخلة في الوظيفة الإدارية عن طريق ممثليها في عاصمة الدولة أو في الأقاليم تسمى السلطة المركزية Le pouvoir central . ويعني ذلك من الناحية القانونية أنه يوجد شخص اعتباري عام واحد مركزي هو الدولة يباشر جميع الاختصاصات، ولا توجد أشخاص إدارية عامة أخرى تشاركها في مباشرة الوظيفة الإدارية. وبهذا تشكل المركزية الإدارية المفهوم المقابل لمصطلح اللامركزية الإدارية La décentralisation administrative) التي تسمح بتوزيع الوظيفة الإدارية بين عدة أشخاص إدارية إقليمية (الدولة ووحدات الإدارة المحلية) ومرفقية (مؤسسات وهيئات عامة).بيد أنه يمكن الحديث عن مركزية أيضاً حتى في حال سمحت الدولة بوجود عدد من الشخصيات العامة (كالمؤسسات العامة والوحدات المحلية) لكنها تمارس رقابة قوية على أعمالها وتحد من صلاحيتها فتقوم هي بتسمية أعضاء مجالسها أو إداراتها . وقد يحدث أن تجتمع جميع العناصر القانونية للامركزية الإدارية لكن الصبغة المركزية للدولة تبقى طاغية لاسيما عندما تشكو الوحدات المحلية من عدم حصولها على الوسائل المالية اللازمة

١- أنظر Agathe van Lang، Geneviève Gondouin، Véronique Inserguet – Brisset، Dictionnaire de droit administratif، e édition، Dalloz،Paris1999، p.50.2

للقيام بعملها[١]. وتختلف المركزية الإدارية وفق التعريف السابق عن المركزية السياسية التي تعكس شكل الدولة الموحدة التي تتميز بوحدة التنظيم السياسي للسلطة بحيث تتجمع السلطات العامة في يد مستوى سياسي واحد وتخضع لدستور واحد وتباشر سيادتها على كافة أرجاء إقليم الدولة، فلا وجود في ظل هذا النظام لكيانات سياسية أخرى على غرار ما عليه الحال في الدول الاتحادية التي تتألف من مستويين دستوريين هما: الاتحاد والدويلات. أما المركزية الإدارية فتنحصر في الوظيفة الإدارية، بل هي لاتعدو أن تكون موديلاً من موديلات[١] إدارة المرافق العامة modes de Gestion des services publics في الدولة. كما تختلف المركزية الإدارية عن المركزية الاقتصادية التي تتحقق عندما يترك أمر توجيه الاقتصاد القومي للسلطة العامة المركزية، حيث لا مجال في ظل هذا النظام للأخذ بالتعددية الاقتصادية .وهذا ما نراه مطبقاً وبشكل واضح المعالم في الدول حديثة النشأة والدول النامية التي تسعى إلى رفع معدلات النمو الاقتصادي.

وبهدف تحقيق المزيد من الوضوح حول مفهوم المركزية الإدارية وجوانبها القانونية، فلابد من حصر الأركان الأساسية التي تقوم عليها المركزية الإدارية، وهذا ما ستتم معالجته في الفقرة الآتية.

ثانياً- أركان المركزية الإدارية

بالعودة إلى تعريف المركزية الإدارية وتحليله يتبين أنها تقوم من الناحية القانونية على مجموعة من الأركان أهمها :

١- حصر الوظيفة الإدارية بيد الإدارة الحكومية المركزية: حيث تقتضي المركزية الإدارية تركيز الوظيفة الإدارية في جهة محددة هي السلطة المركزية في الدولة. والجدير بالذكر أن اتخاذ القرار في شأن من الشؤون العامة التي تدخل في اختصاص الحكومة المركزية يكون بكل مراحله من اختصاص هذه

١- تتنوع طرق إدارة المرافق العامة : فهناك الإدارة المباشرة بواسطة السلطة المركزية أو وحدات الإدارة المحلية وهناك الإدارة غير المباشرة عن طريق شخصيات القانون الخاص. د. نحيلي،الحسين،الهندي،المرافق العامة، منشورات جامعة حلب،عام ٢٠٠٤ ص :١٤٥ وما بعد .

الأخيرة .فهي تعد مشـروع القرار وتتخذ القرار بشـكله النهائي وتتابع تنفيذه . أي أنها تملك سلطة البت النهائي في جميع الشؤون الداخلة في الوظيفة، أي أن إقليم الدولة برمته يُدار عبر العاصمة أو ممثليها في الأقاليم .

٢- حتمية البناء التسلسـلي للإدارة المركزية: إن الأخـذ بنظام المركزية الإدارية يقتضي بالضرورة أن تكون الإدارة ذات تركيبـة تسـلسلية (structure hiérarchieque (subordination أو هرميـة . أي أن الجهـاز الإداري في الدولة يقسم إلى ثلاثة مستويات إشرافية : المستوى الإشرافي الأعلى والمستوى الإشرافي المتوسط والمستوى الإشرافي الأدنى. وتدخل هذه المستويات الإشرافية في علاقة مع بعضها وفق ما تقتضيه قاعدة التدرج الإداري hiérarchie administrive أي توزيع موظفي الإدارة المركزية على مراتب ودرجات تشـكل سُـلَّماً إدارياً يقبع فـي قمته الوزير ويوجد في قاعدته صغار العاملين . وينجم عن التدرج الإداري تطبيق مبدأ وحدة الرئاسـة والأمـر وهو مبدأ من المبادئ الأساسـية في التنظيم الإداري يعني أن تنحصر سـلطة إصـدار الأوامر في نطاق منظمة معينة في يد واحدة بحيث لا يكون للمرؤوس في داخل المنظمة سوى رئيس مباشر واحد . بما يحقق استقرار النظام ومنع إشاعة المسؤولية وضياعها. حيث إن تعدُّد الرئاسات الإداريـة، يلقـي بظلاله على الكفايـة الانتاجية للإدارة ويعيق تطبيق مبدأ سـير المرافق العامة بانتظام واطراد .

٣-السلطة الرئاسية : Le pouvoir hierarchique

يُشتق هذا العنصر من العنصر السابق . ويقصد بالسلطة الرئاسية تلك التي تقرر للرئيس على مرؤوسـيه بشـكل طبيعي . أي أن هذه السـلطة تجد أساسها ليس في القوانين والأنظمة فحسب، بل في الطبيعة القانونية لنظام المركزية الإدارية القائم أساسـاً على قاعدة التسلسـل الإداري والتـي تمنح بطبيعة الحال حقاً للرئيس الإداري يتمثل في مجموعة من الصلاحيات سـواءً على أشـخاص مرؤوسـيه أو بالطبع على تصرفاتهم. و تجدر الإشـارة الى أن التطبيق العملي للسـلطة الرئاسـية يتطلب توافر مجموعة مـن التقنيات القانونيـة technique juridique .

غير أنه وقبل التعرض لهذه التقنيات وتفاصيلها نجد من الضروري تحديد الصفات التي تتصف بها السلطة الرئاسية:

أ- صفات السلطة الرئاسية :

(١) إنها سلطة شاملة : يفسر بعض الفقه هذا الشمول استنادا لمحل الرقابة. حيث ينطلق أنصار هذا الرأي إلى أن الرقابة تشمل أعمال المرؤوسين (أي تصرفاتهم القانونية المتمثلة في القرارات والعقود وغيرها) وأشخاص المرؤوسين على أن تتناوله على أنه موظف عام في خدمة الدولة وجزء من الهيكل التنظيمي للإدارة (tutelle administrative sur les actes et sur les personnes)

بيد أن هذا الرأي وإن كان صحيحاً، لكنه لايمثل كل الحقيقة. حيث يوجد معيار آخر لتحديد لفظة (الشمولية) ألا وهو مدى وحجم هذه الرقابة فلا يقتصر مدى هذه الرقابة على النواحي القانونية (رقابة مشروعية) بل تمتد لتشمل نواحي الملاءمة أيضاً .

(٢) إنها سلطة تلقائية: يعني ذلك أن الرئيس الإداري يمارس هذه الرقابة من تلقاء نفسه أي أنه يمارسها سواءً بناءً على طلب أو شكوى من الأفراد أو حتى من دون ذلك. بل إنها تمارس في أغلب الحالات من دون طلب انطلاقاً من خصوصية طبيعة العملية الإدارية حيث تعد الرقابة إحدى الوظائف الأساسية في الإدارة الحكومية، وتصبح الرقابة من هذه الزاوية واجبا على الرئيس الإداري وليست حقا بيده، أي ينبغي على الرئيس الإداري أن يمارسها سواءً أشار إليها النص القانوني أو لم يشر.

ويفرّق الفقه الإداري الألماني[1] بين نوعين للرقابة التي تمارس على المرؤوس فهناك الرقابة القطاعية (التخصصية) والتي تهدف إلى التأكد من أن انجاز الواجبات الإدارية قد تم وفقاً للقوانين والأنظمة النافذة من جهة،وفيما إذا جاء منسجماً مع الغرض من المهام الإدارية من جهة ثانية . والنوع الآخر رقابة الخدمة أوالرقابة التسلسلية (Dienstaufsicbt) (يقابله باللغة الفرنسية

1- Maurer، Hartmut، Allgemeines Verwaltvngsrecht 12 . Aufl، München، 1999، S.543; BRANDER، Grenzen des ministeriellen Weisungsrechts gegenüber nachgeordneten BehÖrden DÖV1990،.S. 966

tutelle administrative) وتنسحب على التنظيم الداخلي للإدارة، ونظامها الداخلي وشؤون العاملين فيها. وتجدر الإشارة إلى أن التفريق بين كلا النوعين له أثار عملية لأن الرقابة تمارس من قبل سلطات مختلفة فمثلاً ممثل الحكومة في محافظة ما Regierungspräsedent وهو ما يقابل باللغة الفرنسية (préfet) يخضع وفق أدبيات رقابة الخدمة (الرقابة التسلسلية) لوزير الداخلية، ويخضع وفق أدبيات الرقابة التخصصية لكل وزير بحسب القطاع الذي يقوده.

فلو أراد مواطن ما أن يشتكي من سلوك موظف ما، فعليه أن يتقدم بشكوى للسلطة الرئاسية، أما عندما يرى أن عملاً إدارياً (act administratif) صادر عن موظف ما قد خالف القوانين والأنظمة والهدف contraire au droit فعليه أن يتصل مع السلطة الرقابية المختصة قطاعياً من خلال شكوى الرقابةrecours hiérarchique علماً أن كلا النوعين من الشكاوى لايتعدى توجيه اللوم.

ب ـ تقنيات السلطة الرئاسية:

(١) تقنيات الرقابة على أشخاص المرؤوسين لجهة مراكزهم وأوضاعهم الوظيفيّة القانونية: لابدّ هنا من التذكير أن السلطة الرئاسية على شخص المرؤوس تبدأ مع بداية الحياة الوظيفية للموظف وتنتهي بانتهاء خدمته فهي بذلك تشمل سلطة الرئيس في تعيين المرؤوس وتتابعه في مسيرته الوظيفية (التحرك الزمني والمكاني) حيث يمكن للرئيس نقل المرؤوس وترفيعه وترقيته ومنحه التعويضات والعلاوات والإجازات والحوافز وإيقاع العقوبات المسلكية[١] عليه، غير أن ممارسة هذه السلطة على أشخاص الموظفين تنحصر بمراكزهم وأوضاعهم الوظيفية لذا يشترط من ممارسيها التقيد بمتطلبات حسن سير العمل الإداري.

(٢) تقنيات الرقابة على أعمال المرؤوسين : تتناول السلطة الرئاسية التي يمارسها الرئيس على المرؤوس أعمال هذا الأخير. وقد درج الفقه

١- يفرق قانون العاملين الأساسي السوري رقم /٥٠/ لعام ٢٠٠٤ بين العقوبات المسلكية الخفيفة والعقوبات المسلكية الشديدة ويقول :إن العقوبات الخفيفة تفرض بقرار من صاحبة الحق في التعيين أو السلطة التي تعلوها على مبدأ أن الأعلى يشرف على الأدنى ضمناً. أما العقوبات الشديدة فتفرض بحكم من المحكمة المسلكية المختصة مكانياً وتنفذ بقرار السلطة صاحبة الحق في التعيين (المادة ٦٨ من القانون ٥٠ لعام ٢٠٠٤).

الإداري علـى تقسـيم تقنيات هـذه الرقابة إلى قسـمين اثنين : الرقابة السـابقة على صدور تصرفات المرؤوسـين وتتمثل في التوجيه، والرقابة اللاحقة على صدور تصرفات وأعمال المرؤوسين وتتجلى في التعقيب. وسنوضح فيما يأتي مضمون كل سلطة على حدة.

- **سلطة التوجيه :** تتمثل هذه السلطة بمجموعة من الصلاحيات والأوامر يقررها المشـرع للرئيس الإداري، وتظهر على شكل أوامر شفوية أو مكتوبة، أو إعـداد كتـب ومنشـورات (circulaire) ودليـل استرشـادي. وتتضمن هذه التعليمات والمنشورات تفسيراً للنصوص التي يتولى الموظف تنفيذها. وبما أن سـلطة التوجيه كما يدل اسمها عليها تتضمن من جملة ما تتضمنه توجيه أوامر إلـى المرؤوس الإداري، فلا بد من طرح السـؤال الآتي : هل تعد هذه الأوامر ملزمة للمرؤوس، يطيعها وينفذها كما هي؟

فـي الحقيقة إن واجب الطاعـة الملقى على عاتق المرؤوسـين في إطاعة أوامر الرئيس يسـتمد أصله مـن اعتبار الموظف جزءاً مـن الهيكل التنظيمي للمنظمة التي يعمل لديها. ولهذا السـبب فـإن أوامر الرئيس لا ترتقي من حيث الطبيعـة الحقوقية إلى مرتبة القـرار الإداري. وبالتالي فهي وإن كانت مخالفة للقانـون لا تقبل الطعن بالإلغاء أمام المحكمـة الإدارية المختصة كونها تتناول الموظف باعتباره عضواً في الهيكل التنظيمي للمنظمة، ولا تتناوله في مركزه الشـخصي. لكن ومن زاوية أخرى يتحمل المرؤوس مسـؤولية شـخصية عن مشـروعية تصرفاته الوظيفية (مسؤولية مسـلكية، مسؤولية جزائية، مسؤولية مدنية). وبالتالي ينشأ هنا نوع من الصراع : فمن جهة، على الموظف أن يلتزم بتوجيهات الرئيس، ومن جهة ثانية عليه أن يتجنب المسؤولية الشخصية بشتى صورهـا، فكيـف يحل النزاع؟ يرى الفقه الألمانـي أن هذا النزاع لا يمكن حله إلا مـن خلال عملية الاعتـراض . فعندما يكون لدى الموظـف العام تحفظات على مشروعية الأوامر التي يتلقاها من الرئيس الإداري،فعليه أن يسلك طريق الاعتراض لدى رئيسـه . فإذا قام هذا بالإصـرار على الأمر، فعلى المرؤوس أن يقوم بالتنفيذ ولكن تسـقط عنه المسـؤولية الذاتية . غير أن الحال تختلف إذا

كان توجيه الرئيس يتضمن أمراً للقيام بتصرف أو سلوك يعاقب عليه القانون الجزائي (أي ارتكاب جريمة جزائية)، أو كان هذا التصرف أو السلوك المطلوب القيام بهم مناهضاً لكرامة الإنسان فيحق عندئذٍ رفض الأمر شريطة أن يكون الأمر دالاً دلالة واضحة على ارتكاب الجرم الجزائي . إذ أن أوامر الرئيس الإداري لا تعد من أسباب التبرير والإباحة في مجال المسؤولية الجزائية (مبدأ المسؤولية الجزائية الشخصية) .

- **سلطة التعقيب على أعمال المرؤوسين :** تتجلى هذه السلطة بمجموعة من الصلاحيات أهمها :

حق الرئيس في إجازة وإقرار أعمال مرؤوسيه وحقه في تعديل أو إلغاء أو سحب قراراتهم أو حتى الحلول محلهم في إصدارها إذا كان هناك نص قانوني صريح[1].

وبخصوص سلطة الرئيس في إقرار وتصديق أعمال المرؤوسين، فهو يمارس رقابة شاملة على التصرف الذي قام به المرؤوس حيث يتأكد من مشروعيته ومن ملاءمته للعمل الإداري . أي أنه من حق الرئيس الإداري أن يلغي قراراً أصدره أحد مرؤوسيه إذا كان سليماً من الناحية القانونية، لكنه غير ملائم للعمل الإداري .

ولابدَّ من الإشارة في نهاية هذه الفقرة الى أن السلطة الرئاسية يقابلها دوماً مسؤولية الرئيس الإداري أمام الرئيس الأعلى الى أن نصل إلى مسؤولية الوزير أمام رئيس الجمهورية . أما أساس هذه المسؤولية فيكمن في المبدأ الشهير من مبادئ التنظيم الإداري ألا وهو مبدأ التلازم والتناسب بين السلطة والمسؤولية.

ثالثاً : صور المركزية الإدارية

تأخذ المركزية الإدارية صورتين: التركيز الإداري concentration وعدم التركيز الإداري déconcentration .

١- د. فوزت فرحان، القانون الإداري العام، الكتاب الأول، منشورات مكتبة الحلبي،٢٠٠٤،ص:٥٦ يقصد بإلغاء القرار الإداري،إخماد أثار القرار بالنسبة للمستقبل ex nunce أما السحب فيمتد إلى الماضي لينهي جميع الآثار التي رتبها بالإضافة إلى المستقبل ex tunce،

١- التركيز الإداري (الوزارية) :

بمقتضى هذه الصورة تنحصر الصلاحيات الإدارية بكل جزئياتها في يد الوزير، بحيث لا يكون لممثل الوزير في الأقاليم أي سلطة، أي ينبغي على ممثلي السلطة المركزية في الأقاليم الرجوع إلى وزاراتهم في كل جزئية . ومن هنا جاء وصف (الوزارية) للدلالة على الدور العظيم للوزير وهيمنته على كافة شؤون الوزارة في المركز وفي الأقاليم، ومن هنا تمَّ وصف التركيز الإداري بالمركزية المتطرفة أو الحصرية الإدارية[١].

وتعليقاً على هذه الصورة من المركزية الإدارية يمكن القول : إنها تؤدي الى إهدار مبدأ التلازم بين السلطة و المسؤولية. إذ كيف يتسنى تحميل الرئيس الإداري مسؤولية سير العمل وانتظام المرفق العام في الوقت الذي لا يملك فيه أي سلطة . ناهيك عن العيوب الأخرى التي يمكن توجيهها لنظام التركيز الإداري لاسّيما أنه يؤدي الى انشغال الوزير بأمور ثانوية ويبعده عن أمهات الأمور (رسم السياسات العامة للدولة) . واستناداً الى هذه العيوب فلم يعد لهذه الصورة تطبيق من الناحية العملية .

٢- عدم التركيز الإداري (اللاوزارية) :

أمام فشل أسلوب الوزارية في إدارة الشؤون والخدمات العامة، كان لابدَّ من التفكير بأسلوب آخر يجنبنا الوقوع في مخاطر المركزية المتطرفة . من هنا كان الاعتماد على أسلوب عدم التركيز الإداري أو ما يسمى المركزية النسبيّة. وهذا الأسلوب يخوِّل بعض موظفي الوزارة في العاصمة أو في المحافظات سلطة البت النهائي في بعض الأمور دون حاجة للرجوع إلى الوزير، الأمر الذي يُوفر وقتاً طويلاً للوزير يستطيع أن يستثمره في إنجاز المهام الرئيسة في وضع السياسة العامة للدولة[٢].

بيد أن السؤال المطروح : كيف يتم الانتقال إلى أسلوب عدم التركيز

١- المحامي الدكتور محيي الدين القيسي، القانون الإداري العام، منشورات الحلبي الحقوقية ٢٠٠٣، ص: ٢٣ .
٢- خالد الظاهر، القانون الإداري (دراسة مقارنة) (الكتاب الأول) دار المسيرة للنشر،١٩٩٨،ص:١٠٣ وما بعد .

الإداري ؟ بسؤال آخر : ما آليات ممارسة السلطة في نظام عدم التركيز الإداري (اللاتمركز الإداري)؟

أ- أساليب ممارسة السلطة في نظام عدم التركيز الإداري (صور عدم التركيز الإداري)[1] يتحقق عدم التركيز الإداري من خلال تقنيتين اثنتين :

(١) إعادة توزع الاختصاص بدءا بنص تشريعي: حيث يتولى المشرِّع منح أكثر من شخص أو أكثر من جهة اختصاصات سلطة اتخاذ القرارات الإدارية، وهنا يتعين الرجوع إلى النصوص القانونية لتحديد وبيان مراكز اتخاذ القرار دون العودة إلى الحكومة المركزية في العاصمة .

(٢) أسلوب التفويض الإداري : أكثر الأساليب المتبعة لممارسة السلطة في نظام عدم التركيز الإداري . حيث يعهد الإداري ببعض اختصاصاته إلى إداري آخر ليمارسها دون الرجوع إليه مع بقاء مسؤوليته عن تلك الاختصاصات المفوضة .أي أن التفويض لا يعني تخلي الإداري عن سلطاته ومسؤولياته، بل هو مجرد آلية أفضل لتقديم الخدمات وإنجاز الأعمال الإدارية بسرعة وبكفاءة[2]، وهذه في حقيقة الأمر ذاتها فوائد الأخذ بنظام عدم التركيز الإداري التي يضاف إليها ما يأتي :

- التخلص من التركيز الشديد للسلطة .
- توفير الوقت والجهد والمال .
- حل المشكلات والصعوبات التي تواجه سير العمل الإداري بشكل أكثر فعالية لأن سلطة اتخاذ القرار تكون في يد المرؤوس الأكثر قرباً من الواقع، ورغم ذلك يجب عدم الخلط بين اللاتركيز الإداري واللامركزية الإدارية، ففي اللاتركيز الإداري تكلف الدولة ممثليها في الدوائر والتقسيمات الإدارية بالمزيد

١- يستخدم بعض الكتاب عبارة «صورعدم التركيز الإداري» وأهمها بحسب رأيهم: التفويض والإنابة والحلول . د. فوزت فرحان، القانون الإداري العام، الكتاب الأول، مكتبة الحلبي،٢٠٠٤،ص: ٥٦ وما بعد .

٢- لمزيد من المعلومات حول موضوع التفويض الإداري ومقارنته مع التفويض التشريعي : د. عبد الغني بسيوني عبد الله، القانون الإداري، الدار الجامعة، بلا تاريخ، ص:١٨٢ وما بعدها; عبد الله طلبة، الإدارة العامة، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٨، ص : ١٢١ وما بعدها; أنور رسلان، القانون الإداري، برنامج التعليم المفتوح، نسخة خاصة بسورية، ٢٠٠٤. ص: ٧٩ وما بعدها .

من السلطات، أما في اللامركزية فتقوم الدولة بالاعتراف بالمزيد من الصلاحيات للهيئات المحلية المنتخبة، فالمفهومان مختلفان قانونياً، لكن العمليتين شبيهتان، حيث إن اللامركزية لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا صحبها عدم تركيز إداري.

بقي أن نذكر أن التفويض الإداري يجد له أساساً قانونياً عاماً في سورية يتمثل في المرسوم التشريعي/٦٩/ لعام ٢٠٠٥ بالإضافة إلى التشريعات الإدارية الخاصة التي تتضمن بعض الأحكام التي ترخص للرئيس الإداري استعمال مؤسسة التفويض لأداء بعض المهام الإدارية من هذه التشريعات نذكر على سبيل المثال لا الحصر قانون تنظيم الجامعات رقم /٦/ لعام ٢٠٠٦، وقانون الإدارة المحلية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم /١٥/ لعام ١٩٧١...الخ

رابعاً- تقدير المركزية الإدارية (المركزية الإدارية في الميزان)

كأي نظام بشري يحقق نظام المركزية الإدارية بعض الفوائد (الحسنات) ولكن تسجل عليه بالوقت ذاته بعض العيوب . ومن أهم الحسنات التي سجلها الفقه لنظام المركزية الإدارية نذكر: إن نظام المركزية الإدارية يحقق الوحدة القانونية والسياسية للدولة، ويقوي السلطة التنفيذية، كما يساعد على الاستقرار والدقة ووضوح الإجراءات الإدارية والاقتصاد في الإنفاق العام، ناهيك عن أن نظام المركزية الإدارية هو الأسلوب الأمثل والأصلح لإدارة المرافق العامة القومية التي تعتبر بطبيعتها غير قابلة للتوزيع، بل ينبغي أن تدار بأسلوب موحد عن طريق المركز، مثل: مرفق الدفاع ومرفق القضاء والأمن (الوظائف الكلاسيكية للدولة). غير أن الحسنات (وهي أصلاً محل اختلاف في وجهات النظر) لا ولن تستطيع الصمود أمام (العيوب) التي تعتري نظام المركزية الإدارية، لاسيما إذا أمعنا النظر في التغيرات التي طرأت على دور الدولة وفرضتها التطورات الاقتصادية والسياسية والثقافية والنظام العالمي الجديد، فلم يعد نظام المركزية الإدارية صالحاً لإدارة المهام المتعددة والمتنوعة في دول عالمنا المعاصر إدارة كفوءة وفعالة وفق مقاييس جودة الخدمة، فهو نظام بعيد عن المرونة ولا يشجع على الابتكار وعلى مشاركة المواطنين في تحمل المسؤولية في الشأن العام. ناهيك عن أنه يؤدي إلى الهدر في الوقت والمال. أمام هذه العيوب التي لاتخفى على أي من المتتبعين كان

لابـد من ابتكار نظام إداري آخر لإدارة الخدمـات العامة، نظام يراعي المتغيرات التـي طـرأت على دور الدولـة، نظام يقوم على أسـاس توزيع السـلطات لا على أساس حصرية السلطات : إنه نظام اللامركزية الإدارية ونظام التشاركية بين العام والخاص في أداء الخدمات العامة PPP / Partenariat public privé .

خامساً- هيكلية الإدارة المركزية في سورية كتطبيق من تطبيقات المركزية الإدارية

وردت لفظة السـلطة المركزية في المادة /٢/ من المرسوم التشريعي رقم /١٥/ لعـام ١٩٧١ المتضمن قانون الإدارة المحليـة كما وردت في المادة /٢/ فقـرة /٢/ من اللائحية التنفيذية لقانـون الإدارة المحلية حيث جاء فيها « يقصد بالسـلطة المركزية:أ. مجلس الوزراء ب. الوزارة المختصة جـ. وزارة الإدارة المحليـة . غيـر أن هذا التحديد للسـلطة المركزية وفق قانـون الإدارة المحلية لا يشـمل هيكليـة الإدارة المركزية برمتهـا حيث يعـد إدارة مركزية بالمعنى الـذي تتطلبه أدبيات المركزيـة الإدارية كل جهة تتبع للسـلطة المركزية التي تمارس نشاطا حكومياً يشمل إقليم الدولة برمته. هذا المعنى ينطبق على رئيس الجمهوريـة ورئيس مجلس الوزراء ومجلس الـوزراء والوزراء والمحافظين ومديري المناطق ومديري النواحي، بالإضافة إلى الوحدات الإدارية المساعدة العاملة والاستشـارية والملحقة مباشـرة برئاسـة الحكومة. وإذا حاولنا تصميم هيكل تنظيمي للمسـتوى المركزي للإدارة الحكومية في سورية فإنه يبدو على الشكل الآتي :

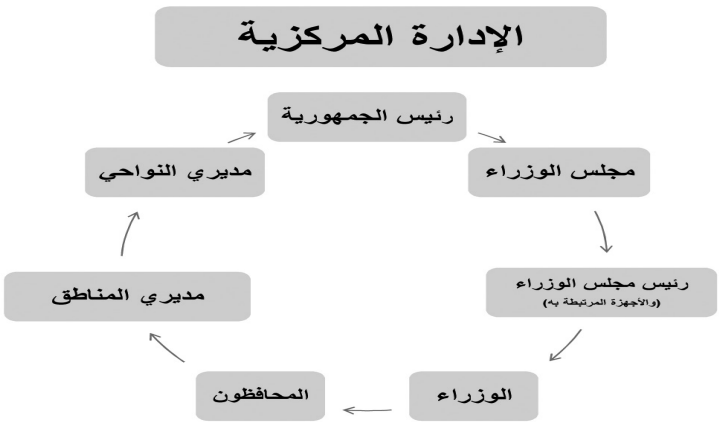

وفق هذه الهيكلية تتألف الإدارة المركزية في سورية من مستويين إداريين:

١- الدولــة (ممثلة برئيس الجمهورية ورئيــس مجلس الوزراء والوزراء ووحدات الإدارة المركزية الملحقة بها.

٢- المحافظــات (ممثلــة بالمحافظ ومديري المديريــات والمصالح التابعة لسائر وزارات الدولة ومديري المناطق والنواحي)

علــى خلاف تنظيــم الإدارة المركزية في فرنســا التــي تتألف من عدة مستويات :

Etat الدولة ⇦ رئيس الدولة + رئيس الحكومة + الوزراء

Région الإقليم ⇦ ممثل السلطة المركزية في الإقليم

Département المحافظات ⇦ ممثل السلطة الإدارية المركزية في المحافظة

وعلــى خلاف التنظيــم الإداري المركزي في جمهوريــة ألمانية الاتحادية الذي يتألف من ثلاثة مستويات[1]:

الإتحاد (المستشار والوزراء) Bund

↓ ⇩

الدويلات (رؤساء حكومات الدويلات والوزراء) Länder

↓ ⇩

المحافظات (ممثلو الحكومة المركزية في المحافظات) Bezirke

1- Maurer، Hartmut، Allgemeines Verwaltvngsrecht 12 . Aufl، München 1999، S.543

إنهاء العلاقة الإيجارية في الفسخ استثناء من الأصل

الأستاذ الدكتور زهير حرح
رئيس قسم القانون الخاص- جامعة دمشق- كلية الحقوق

مقدمة

الفسخ : جزاء أقرّه القانون لأحد طرفي العقد، عندما يخلُّ الطرف الآخر بالتزاماته التعاقدية، أو التزام أقرَّه القانون، أو استخدام لخيار عقدي أو قانوني. وممارسة حق الفسخ ليس مطلقاً، بل لا بدَّ أن يتم وفقاً لما جاء في القانون، فقد جاء في القانون المدني السوري، على أنه لا يجوز نقض العقد أو تعديله بإرادة أحد الطرفين.ففي حال أراد أحدهم فسخ العقد، يجب عليه أن يقيم دعوى يطلب فيها فسخه، والحكم بالفسخ حينها يخضع لسلطة القاضي ورقابته، فالقاضي غير مقيد بإرادة طالب الفسخ، فله أن يحكم به أو يرفضه، ومن ثمَّ فإن الأمر يعود لسلطة القاضي. وسوف نقسم هذا البحث إلى مطلبين وفق الآتي:

المطلب الأول ـالفسخ القضائي

الأصل في الفسخ أن يكون قضائيا والفسخ هو حل الرابطة العقدية بناءً على طلب أحد طرفي العقد، عندما لم يقم الطرف الآخر بتنفيذ التزاماته التعاقدية . فالفسخ هو جزاءٌ على تعدي أحد المتعاقدين أو تقصيره المتمثل في عدم تنفيذه لالتزاماته أو التأخير فيه. فإذا حصل هذا الإخلال من المتعاقد جاز للمتعاقد الآخر أن يطلب حل الرابطة العقدية حتى يتحرر من التزاماته الناشئة بسبب العقد.

وفي الفقه الإسلامي لم يعرف نظام الفسخ على نحو ما متعارف عليه في

القانــون المعاصر، وإخلال أحد المتعاقدين بالتزاماته، يخوِّل المتعاقد الحق في إجبار المتعاقد الآخر على الوفاء بالالتزام من دون طلب الفسخ، وفي حال عدم إمكانيــة ذلــك يرجع على غريمه بالضمــان، أي بالتعويض. ولا يوجد في الفقه الإسلامي ما يمنع من أن يتفق الطرفان على فسخ العقد، حيث يقع الفسخ بمجرد إفصاح الدائن عن رغبته في الفسخ وإبلاغ الطرف الآخر بذلك، وهذا ما يعرف بـخيار النقد. وهو خيار إرادي يثبت بالاشــتراط من أحد المتعاقدين أو كليهما، وعند الاشــتراط يمكن المضي في عقد البيع أو فســخه، لا بالفســخ المجرد كما الحال في خيار الشرط بل بما جعل أمارة على الفسخ وهو عدم النقد.

والفســخ انحــلال الرابطة العقدية بأثر رجعي في العقــود الملزمة للجانبين عندمــا يخل أحــد المتعاقدين بتنفيذ التزامه. وقد عالج القانون المدني الســوري الفســخ في المــادة (١٥٨) التي جاء فيها: «في العقــود الملزمة للجانبين، إذا لم يوفِ أحد المتعاقدين بالتزامه، جاز للمتعاقد الآخر بعد إعذاره المدين أن يطلب بتنفيــذ العقد أو بفســخه مع التعويض في الحالتيــن، إن كان له مقتضى». ومن ســياق هذا النص يتضح أن المشرع لم يورد تعريفاً للفسخ وإنما أوضح إمكانية طلب الفسخ بتوافر شروط معينة.

أولاً- شــروط الفســخ: يقع الفســخ في العقود من دون التصرفات بإرادة منفــردة، ويقع الفســخ في العقود الصحيحة التي ترتــب آثارها، وعندئذٍ يجوز فسخها عند عدم تنفيذ أحد أطرافها للالتزام المقرر في ذمته .

ويطبق الفســخ، في نطاق العقود الملزمــة للجانبين،لأن فكرة الارتباط بين الالتزامات تتوافر في هذا النوع من العقود. ومن ثمَّ يســتثنى من الفســخ العقود الملزمــة لجانب واحد كالوديعــة والهبة بغير عوض. ولابدَّ من توافر شــروط محددة لكي يتمكن الدائن من طلب الفسخ، وهذه الشروط هي:

١- أن يكون العقد ملزماً للجانبين: ويكون العقد ملزما للجانبين إذا أنشــأ التزامــات متقابلــة في ذمة كل مــن المتعاقدين. وهذه العقود يرد عليها الفســخ بجميع أنواعه، لأن الفسخ مبني على فكرة الارتباط ما بين الالتزامات المتقابلة.

أمــا بالنســبة إلى العقــود الملزمــة لجانب واحــد كالوديعــة أو الهبة بغير

عـوض فـلا يمكن أن تكون قابلة للفسـخ، فهي لا تقوم على فكـرة الارتباط ما بيـن الالتزامات المتقابلة، بل يكون أحـد الطرفين هو الملتزم، فإذا لم يقم بتنفيذ التزامه، لم يكن للطرف الآخر أي مصلحة في طلب الفسخ، لأنه ليس في ذمته أي التـزام يتحلل منه، بل إن مصلحته تكون في طلب تنفيذ العقد. ويرد الفسـخ على العقود الملزمة للطرفين، سـواء أكانت فورية كالبيع أم زمنية كما في عقد الإيجار، وسواء أكانت محددة أم احتمالية.

٢- إخـلال أحد المتعاقدين بالتزاماته: لكي يتمكن الدائن من طلب الفسـخ فـي العقود الملزمة للجانبين، يجب أن يكون الطـرف الآخر قد أخلَّ بالتزاماته التعاقدية الناشـئة عن العقد المراد فسـخه. إذ يشـترط لوقوع الفسـخ أن يمتنع المدين عن تنفيذ التزامه امتناعاً كلياً أو جزئياً.

ولا بدَّ أن يكون سـبب عدم تنفيذ العقد قد تمَّ من دون تدخل سـبب أجنبي. فعدم التنفيذ الذي يعتَّدُ به في مجال الفسخ، هو عدم التنفيذ الذي يتسبب فيه أحد المتعاقدين بخطأ منه. أما في حال كان يعود لسبب أجنبي، ينقضي معه التزام المدين والالتزام المقابل معه، وينفسـخ العقد من تلقاء نفسـه بحكم القانون. ويجب أن يبقى الإخلال بالالتزام العقدي مسـتمراً حتى صدور الحكم النهائي بالفسخ، ومن ثَمَّ في حال زال سبب الفسخ كما لو قام المدين بتنفيذ التزامه، عندها لا مجال للفسخ.

٣- أن يكون الدائن مسـتعداً لتنفيذ التزامه: لا يحـق للطرف الذي يخِّل بالتزامه طلب الفسـخ، بل يكون ذلـك للطرف الذي تضرر من جراء ذلك، ولا يسـتطيع الدائن في هذه الحالة طلب الفسـخ إلا إذا كان قد التـزم بتنفيذ التزامه المحدد وفق العقد أو كان مسـتعداً للقيام بذلك، ومن ثمّ يقتضي الفسـخ أن يكون طالبه قادراً على تنفيذ التزامه، أو مستعداً لذلك، فليس من العدل أن يخل بالتزامه ويطالب الطرف الآخر بالتنفيذ. ولما كان الفسخ من شأنه أن يعيد الحال إلى ما كانت عليه، فلا بدَّ لكي يحكم القاضي بالفسـخ أن يكون الدائن الذي يطلب ذلك قادراً على رد ما أخذ.

٤-إعذار المدين: لا يجوز للدائن وفقاً للقانون أن يطالب بفسخ العقد بسبب عـدم تنفيذ المدين لالتزاماته إلا بعد أن يقـوم بإعذاره. ومطالبته بالتنفيذ قبل أن

يرفع دعوى الفسخ. وتوجيه الإعذار لا يعدُّ شرطاً من شروط إقامة دعوى الفسخ، ولكنه شرطٌ للحكم بالفسخ، ويكفي أن يقوم طالب الفسخ بإعذار المدين ومطالبته بالوفاء عن طريق مذكرة الدعوى.

ثانياً: السلطة التقديرية للقاضي:

أعطى المشرع القاضي سلطة الرقابة المسبقة على طلب فسخ العقد. حيث يمكن للقاضي أن يحكم بالفسخ، أو يحكم بالتنفيذ العيني، مع التعويض في الحالتين إذا كان له مقتضى، ويمكن له أيضاً أن يمنح أجلاً للمدين. فالقاعدة العامة في القانون السوري أن العقد لا يفسخ إلا بحكم قضائي. إلا أنَّ القاضي لا يقضي به من تلقاء ذاته بل يشترط أن يقوم طالب الفسخ بتقديم طلب للقاضي، والقاضي عندها يقوم بالتأكد من توافر الشروط التي تستوجب الفسخ.

والقاضي ليس مجبراً على الحكم بالفسخ لمجرد طلب الدائن ذلك، بل يملك سلطة تقديرية واسعة في الحكم بالفسخ من عدمه، تبعاً لتقديره للظروف التي وقع فيها الإخلال. ويستطيع منح المدين أجلاً لتنفيذ التزامه، وله أن يرفض الفسخ في حال كان طلب الدائن لا مبرر له، وله أن يحكم بالفسخ إذا كانت الظروف تبرر ذلك.

المطلب الثاني:الاستثناء-الفسخ بالإرادة المنفردة

القاعدة العامة في الفسخ في القانون السوري أنه قضائي، حيث يخضع لرقابة القاضي وسلطته التقديرية الحكم بالفسخ أو رفضه. ومن ثمَّ إذا أخلَّ أحد المتعاقدين بالتزاماته وتحققت شروط الفسخ، عندها لا يحق للطرف الآخر أن يفسخ العقد بإرادته المنفردة، وإنما عليه أن يطلب فسخه عن طريق القضاء. وهناك استثناءات أجاز فيها المشرع السوري للدائن فسخه بإرادته المنفردة، وذلك استثناءً من الأصل في الفسخ الذي يجب أن يكون قضائياً. من هذه الحالات ما يأتي:

١-الحالات التي أجاز فيها القانون السوري للدائن فسخ العقد بإرادته المنفردة، استثناءً من الأصل في الفسخ :

- **بيع العروض:** في بيع العروض وغيرها من المنقولات إذا اتفق على

ميعاد لدفع الثمن وتسلم المبيع، يكون البيع مفسوخاً دون حاجة إلى إعذار إن لم يدفع عند حلول الميعاد وإذا اختار البائع ذلك، وهذا ما لم يوجد اتفاق على غيره.

-عقد العمل الفردي: أجاز القانون لرب العمل فسخ العقد بإرادته المنفردة في حالات معينة من هذه الحالات، إذا أخلَّ العامل بالتزاماته الجوهرية الناشئة عن عقد العمل. وكذلك إذا وقع اعتداء من العامل على رب العمل أو على المدير المسؤول، أو إذا أفشى العامل الأسرار الخاصة بالمحل الذي يعمل فيه. وبالمقابل، أجاز القانون المذكور للعامل أيضاً فسخ العقد بإرادته المنفردة في حالات معينة منها، إخلال رب العمل بالتزاماته الجوهرية الناشئة عن عقد العمل، أو إذا اعتدى رب العمل أو من ينوب عنه على العامل، أو إذا ارتكب رب العمل أو من ينوب عنه عملاً مخلاً بالآداب نحو العامل أو أحد أفراد أسرته. ويمارس القاضي في هذه الحالات رقابة لاحقة على الفسخ، لذلك يتوجب على الدائن عندما يمارس سلطته في فسخ العقد بإرادته المنفردة أن يكون يقظاً وحذراً في الآن ذاته، لأنه إذا تبين للقاضي أن الدائن لم يكن على حق عند فسخه للعقد فإن هذا الأخير يتحمل جميع النتائج التي يترتب على فسخ العقد.

- عقد العمل الزراعي: أجازت المادة /٦٩/ من القانون رقم ٥٦ لعام ٢٠٠٤ وتعديلاته، المتعلق بتنظيم العلاقات الزراعية لصاحب العمل فسخ العقد غير المحدد المدة من دون إنذار العامل في حالات معينة. كما أجازت المادة /٧٤/ للعامل، فسخ عقد العمل الزراعي غير محدد المدة في حالات معينة.

٢- فسخ العلاقة الإيجارية بإرادة المالك المنفردة:

وفقاً للمادة /١٢/ من قانون الإيجار رقم ٢٠ لعام ٢٠١٥، يحق للمالك إنهاء العلاقة الإيجارية واسترداد العقار المأجور مقابل التعويض للمستأجر. ويعدُّ هذا الإنهاء فسخاً لعقد الإيجار بإرادة المالك المنفردة.

وإذا عدنا إلى أحكام التمديد الحكمي للعلاقة الإيجارية، نلاحظ أن القانون هو الذي أعطى المستأجر الحق في البقاء شاغلاً للعقار المأجور من دون تقييده بزمنٍ معينٍ، وذلك في حال عدم إخلاله بتنفيذ التزاماته، واستمراره بدفع الأجرة والحفاظ على المأجور وفقاً لما هو متفق عليه. ومن ثمَّ فالقانون هو الذي

أبقى المستأجر في العين المؤجرة على الرغم من انتهاء مدة العقد الأصلية، وكان السبب في ذلك يعود لاعتبارات اجتماعية واقتصادية نتيجة الظروف الاستثنائية التي كانت سائدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وقد حقق التمديد الحكمي للمستأجر مزايا عدة،منها ديمومة واستمرار العلاقة الإيجارية، فانقلبت الموازيين ليكون المؤجر طرفاً ضعيفاً والمستأجر طرفاً قوياً. فالمؤجر أصبح مالكاً لعقاره مع وقف التنفيذ، والمستأجر حائزاً للعقار ومنتفعاً به بقوة القانون.

وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على تطبيق التمديد الحكمي لعقود الإيجار، تدخل المشرع من جديد لإعادة التوازن في المصالح بين المالك والمستأجر، ومنح الحق للمالك بوضع حد للتمديد القانوني لعقد الإيجار، عن طريق تمكينه من فسخ هذا العقد بإرادته المنفردة واسترداد عقاره مقابل دفع تعويض للمستأجر. فالمادة (١٢/أ) من القانون رقم ٢٠ لعام ٢٠١٥ كرست حكماً خاصاً لإنهاء عقد إيجار العقارات المؤجرة للسكن والخاضعة في الأصل لمبدأ التمديد الحكمي، وهذا الحكم ه حق المالك في إنهاء العقد بشروط معينة، فأراد المشرع بهذا النص أن يعقد نوعاً من الصلح الاجتماعي بين هاتين الزمرتين بشكل يؤدي إلى استقرار الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمالكين والمستأجرين. والأصل في الفسخ أن يكون قضائياً، وحالة إنهاء العلاقة الإيجارية بإرادة المالك تعد استثناء من هذا الأصل، وتوصف بأنها فسخ بإرادة منفردة مصدره القانون.

المبدأ في العقود غير محددة المدة أنها قابلة للإنهاء بالإرادة المنفردة، ويرجع هذا المبدأ إلى عدم جواز الالتزام المؤبد، فالتزام الشخص بالقيام بعمل معين يجب أن يكون مؤقتاً، لأن الالتزام هو قيد على حرية الفرد، ومن ثم لا يجوز أن يكون بصورة مؤبدة تتنزع فيها الحرية، وهو أمر غير جائز لمخالفته للنظام العام، فحماية الحرية الفردية والملكية الخاصة تقتضيها القواعد القانونية.

٣- أحكام الفسخ بالإرادة المنفردة بالنسبة إلى عقد الإيجار الملزم لجانبين:

إمكانية الفسخ بالإرادة المنفردة غير جائز في الأصل بالنسبة إلى عقد

الإيجـار، بوصفه من العقود الملزمة للجانبين، حيث يعد ذلك خروجاً على مبدأ القـوة الملزمة للعقد. والفسـخ بالإرادة المنفردة، غير جائز بحسـب الأصل في القانون السوري، والقبول به يعد خروجاً على مبدأ القوة الملزمة للعقد.

ومادام العقد قد نشـأ صحيحاً، فهو يلزم المتعاقدين بتنفيذ جميع ما اشـتمل عليـه في نطاق الدائرة التي يجيزها القانـون، بحيث لا يخالف النظام العام ولا الآداب. والعقـد عندهـا يقوم مقـام القانون في تنظيم العلاقـة التعاقدية فيما بين المتعاقديـن. فـإذا اتفق الطرفان علـى إبرام عقد بإرادتهمـا، كان هذا العقد هو القانون الذي يسري عليهما. وليس المراد بذلك أن العقد يشبه القانون من جميع النواحي، بل إن الالتزام الذي نشأ من العقد له قوة الإلزام الناشئ من القانون.

والأصـل فـي العقد أنه ملزم للجانبين، فهو يتضمـن قوة تحتم على طرفيه الرضـوخ له في كل ما يحتويه من بنود، لأنـه يعدُّ بمنزلة قانون للطرفين، ولا يسـتطيع أحدهما تعديله أو نقضه إلا بوجود نص قانوني أو اتفاق يقضي بذلك. كما يجب تنفيذ العقد بطريقة تتفق مع ما يوجبه مبدأ حسن النية.

ولا يجـوز للقاضـي تعديل عقد صحيح تحقيقاً للعدالـة، فهو ملزم أيضاً بمبدأ العقـد شـريعة المتعاقدين، فليس له نقـض العقد بإرادته. فالعقـد وليد إرادتين فلا يمكـن أن تنقضه إرادة واحدة، ومن ثَمَّ لا بدَّ لتعديل العقد أو إنهائه من اتفاق إرادة المتعاقدين على ذلك، كما هي الحال في اتفاق إرادتهما على إنشائه. والقواعد التي تنطبق على الإرادتين في إنشاء العقد ذاتها التي تنطبق على تعديل العقد أو نقضه.

فالعقـد بمجرد قيامه بين طرفيه يعدُّ قانونهم النافذ، فكل ما يدخل في نطاقه مـن التزامات، يجب على طرفيه احترامها وتنفيذهـا، كما لو كان القانون ذاته قد أنشـأها. وقاعدة القوة الملزمة للعقد تعد من أركان مبدأ سـلطان الإرادة، إلى جانـب الحريـة التعاقدية والأثر النسـبي للعقد. فعدم جواز نقـض العقد هو من جوهـر العقد، حيث إن إرادة المتعاقدين قد توافقت على الارتباط من خلال هذا العقد، فيجب عليهما احترام هذا العقد وما ينشأ عنه من التزامات، والثبات على العهد الذي توافق عليه الطرفان.

والقـوة الملزمـة للعقد مصدرها إرادة المتعاقديـن، فالعقد يكون ملزماً لأن

أطرافـه أرادوا ذلـك بمحض مشـيئتهم. فالمالك والمسـتأجر حيـن إبرام عقد الإيجـار، توجهـت إرادة كل منهما إلى إنشـاء هذا العقد والالتـزام به. فالمالك يلتزم بتمكين المسـتأجر من الانتفاع بالعقار المأجور، مقابل التزام المسـتأجر بدفـع الأجـرة. ووفقاً لطبيعة عقـد الإيجار، بوصفه من العقـود الزمنية، يكون الالتـزام لمدة معينة يحددها الطرفان، ولكن بعد صـدور قوانين الإيجار نتيجةً للظروف الاسـتثنائية التي كانت سـائدة، فقد ألزمت المالك على القبول بالتمديد الحكمـي للعلاقة الإيجارية، مقابل التزام المسـتأجر بدفـع الأجرة. ومن ثمَّ فإن القانـون أخرج عقـد الإيجار من نطاق قاعدة العقد شـريعة المتعاقدين، لذا فإن العقد لم يعد يستند في أساسه على إرادة المتعاقدين فقط.

يسـتخلص مما تقدم، أن إنهـاء العلاقة الإيجارية تضمـن حكماً خاصاً، يعدُّ اسـتثناءً من قاعدة الفسخ المنصوص عليها في القانون المدني السوري. فالإنهاء بمنزلة رخصة يسـتطيع المالك بموجبهـا إنهاء عقد الإيجار بإرادته المنفـردة مـن دون أن يكون للمسـتأجر الحق في تفادي ذلـك، ومن دون أن يكون للقاضي السلطة في الامتناع عن إيجاب طلب المالك؛ وإن كان لابدَّ من صدور قرار عن القاضي يحكم بالإنهاء. وبالنتيجة فالإنهاء يعدُّ بمنزلة فسـخ ذي طبيعة خاصة نصّ عليه القانون رقم ٢٠ لعام ٢٠١٥، وفي الحقيقة يمكن تكييـف هذا الإنهاء على أنه فسـخٌ بحكم القانون يكـون المالك صاحب الحق بالمطالبة به فقط.

المراجع:

- أحمد عيسـى، العقود المدنيـة (البيع والإيجار والتأمين)، منشـورات جامعة حلب، مركز التعليم المفتوح، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.
- أسـعد دياب،القانون المدني العقود المسماة، منشورات زين الحقوقية، الجزء الأول، من دون سنة نشر.
- توفيق حسـن فـرج، قواعد الإثبات في المواد المدنية والتجارية، منشـورات الحلبي الحقوقية، بيروت ٢٠٠٣م.

- ثروت حبيب، المصادر الإرادية للالتزام في القانون المدني الليبي، منشورات الجامعة الليبية، كلية الحقوق ١٩٧٢م.
- سليمان مرقس، شرح قانون إيجار الأماكن وتنظيم العلاقة بين المؤجر والمستأجر، القاهرة دار النشر للجامعات المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٥٩م.
-عبد الرزاق السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني، الجزء السادس، المجلد الثاني، الإيجار والعارية، منشورات الحلبي الحقوقية بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٩م.
-عبد الرزاق السنهوري، نظرية الالتزام بوجه عام، المجلد الأول، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، من دون سنة نشر.
-عبد الفتاح عبد الباقي، عقد الإيجار الأحكام العامة، الجزء الأول، القاهرة مطابع دار الكتاب العربي،١٩٥٢م.
- عز الدين الناصوري و د. عبد الحميد الشواربي، المسؤولية المدنية في ضوء الفقه والقضاء، مطبعة القاهرة الحديثة ١٩٨٨م.
- علي مصبح إبراهيم، العقود المسماة (البيع والإيجار والوكالة)، بيروت دار الفكر العربي ٢٠٠٢م.
- فواز صالح، مصادر الالتزام، الجزء الأول، المصادر الإرادية، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١١-٢٠١٢م.
- فواز صالح -محمد عرفان الخطيب، عقد الإيجار، منشورات جامعة دمشق، مركز التعليم المفتوح، سنة ٢٠٠٥م.
- كامل الشيخ قاسم، قانون الإيجارات ين الفقه والاجتهاد (دراسة مقارنة)، من دون سنة نشر.
- محمد إبراهيم دسوقي، تقدير التعويض بين الخطأ والضرر، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، من دون سنة نشر.
- محمد علي فينو، الملحق الأول لكتاب (أضواء على أحكام قانون الإيجار الجديد رقم ٦ لعام ٢٠٠١م)، المطبعة التعاونية بدمشق، من دون سنة نشر.
- محمد علي فينو، شرح أحكام القانون رقم ١٠ لعام ٢٠٠٦م، المطبعة التعاونية بدمشق، من دون سنة نشر.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

النساء: ٣٥

﴿ ... فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ... ٩ ﴾(الحجرات)

التحكيم الشرعي والإصلاح الأسري

عماد كامل زلزلة

إن غاية الزواج السكن والراحة فضلاً عن الرحمة والمودة، قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾(الروم)، لكنه لا يخلو من الاختلاف وبعض المشاكل بين الزوجين، فالحياة الزوجية أخذ وعطاء، وفيها السعادة وفيها الشقاء، وعلى الزوجين لتجاوز هذه العقبات السعي للوصول إلى أعلى درجات السمو الروحي في العطاء والمحبة، وتثبيت دعائم الزوجية على أسس متينة من الثقة والاحترام المتبادل إضافة إلى المودة والرحمة.

دور الوالدين في اختيار الشريك

قال رسول الله ﷺ: (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ)[1]، وقالَ ﷺ: (إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تَكُن فتنة في الأرض وفساد كبير)[2]

فعلى كل شاب مقبل على الزواج أن يحسن الاختيار، ويتحلى بالعقلانية، ويرضي والديه بمباركتهما له، ففي ذلك التوفيق والراحة والاستقرار.

وعلى الأهل أن يعوا بأنهم في زمان غير زمان أولادهم، عليهم أن يعطوا أولادهم الحرية في تحديد شركاء حياتهم، مع مراقبة عَطوفة، وتوجيه

١- البخاري ٥٠٩٠، ومسلم ١٤٦٦.
٢- ابن ماجه ١٩٦٨.

حكيم، فلا إلزام ولا إجبار، ولا رفض ولا استبداد، مما يساعد في استقرار هذا الزواج وديمومته.

أهم أسباب فشل الحياة الزوجية

١- الابتعاد عن الواقعية أوالمنطقية.
٢- عدم وجود خلفية كافية باحتياجات الشريك .
٣- عدم تحمل المسؤوليات تجاه الأسرة بسبب الإهمال أو الجهل أو عدم الرغبة.
٤- تدخل الأهل أوالأصدقاء في الشؤون الزوجية الخاصة.

تنمية روح التواصل بين الزوجين

تأتي أهمية الاتصال في كونه يمثل مهارات محددة، ينبغي على الأزواج التعامل معها بطريقة إيجابية وبنّاءة، وأي خلل فيها يؤدي إلى انخفاض مستوى التوافق بين الزوجين،كالدفاع غير المسوغ، والأنانية.

فالاتصال الجيد عامل أساسي في الزواج الناجح، من خلال مهاراته منهاالاستماع، والتمكن من فهم لغة الجسد، وأساليب التعبير عن الذات.

التربية على الإصلاح

على الأهل كما يعلِّمون أبناءهم وَصَفات الطعام والشراب المختلفة، أن يعلموهم أيضًا أصول التعامل والحوار الناجح، واحترام كل من الزوجين للآخر، وقواعد الحياة الزوجية السعيدة، ولا يكون ذلك بالتلقين فحسب، بل بالمشاهدة والمعايشة، فالإنسان يتعلم مما يراه ويعيشه أكثر مما يقرأه أو يحفظه، فالعلاقة الجيدة بين الوالدينومع المشكلات التي تواجههما، لها دور كبير في نجاح زواج الأبناء.

كما أن التربية المبنية على الثقة المتبادلة بين الوالدينوالأبناءمن خلال الحوار والمصارحةوالاحترام والعدل والرحمة، تسهم في نمو شخص سوي قادر على مواجهة ضغوط ومشاكل الحياة بحكمة وعقل،والوصول بزواجه إلى بر الأمان.

القضاء على النزاع

إذا دب الشقاق والنزاع في الحياة الزوجية إلى حدٍ تعسر معه الحياةوتضيق منــه النفس، فلا مناص من العلاج الشــرعي.. وهو أحد طريقين: إما الإصلاح أو القضاء.

أما الإصلاح فمن ايجابياته.. حصر المشكلة في نطاق ضيق، وستر الأسرار من الانتشارومن تطاير الأخبار، ورضى الطرفين بحل وسطي يضمن استدامة العشرة وبقاء المودة.

أما القضاء فمن سلبياته .. خروج المشكلة إلى خارج أسوار العائلة، وشيوع الأسرار، والألم الحاصل من حزم القضاء والفصل والإلزام.

وسائل الإصلاح بين الزوجين

١- معرفة كل منهما حقوق الآخر، فمن حق الزوجة النفقة والكســوة والمســكن وألا يؤذيها ولا يهجرها إلا في البيت، ومن حق الزوج طاعته في المعروف، وألا تمنعه نفسها لغير عذر شرعي.

٢- معرفتهما معًا لحدود الله وعقابه.

٣- تفكير كل منهما في مستقبل الأولاد ومصلحتهم ببقاء العلاقة الزوجية.

٤- مراعاة كل منهما ظروف الآخر، وتنازلهما عن بعض الحقوق تأليفًا للأسرة ﴿... وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴿٢١﴾﴾ (الروم).

التحكيم بين الزوجين

إن تــرك تعاليم الكتاب الكريم والســنة النبوية المطهــرة، واتباع الهوى قد يصل بالأسرة إلى التشتت والضياع.

هنــا يأتــي دور الإصلاح والتحكيم لإنقاذ الأســرة وبالتالــي المجتمع، بإزالة الحواجز النفســية السلبية بين الزوجين، كالإهمال بســبب كثرة المشاكل، وهموم الحياة المحيطة بالأســرة، وفتور العاطفة مع مرور الزمن، وعلى المحكمين بناء جسر من التفاهم والانسجام بينهما، قوامه رعاية كل منهما حقوق الآخر، من تآلف

وتآزر قائم على أســاس المعروف، لا على أساس الهوى والنزوة، وبيان الحقوق والواجبــات ﴿ ...وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ (البقرة)، ويجوز للمحكمين مــدح إحدهما أمام الآخر بأشــياء قد لا تكون موجودة، بغيــة التقريب بينهما، فعن النبي الأكرم ﷺ: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا) [١]، وللإصلاح بين الزوجين أجر كبير ولو لم يأتِ بالنتائج المرجوة.

قد لا يكون الشقاق والخلافات بين الزوجين منهما، بل سببه الأهل وتدخلهم في حياتهما، كالتدخل في المصروف والعلاقات الاجتماعية، وفي أسلوب تعامل الــزوج مع زوجته أوالعكس، بل أحياناً يصــل التدخل إلى العلاقة الخاصة بين الزوجيــن، الأمر الذي قــد يرفضه أحد طرفي العلاقة الزوجية، خاصة إذا كان متعلمًــا، كل هذه التدخلات قد تؤدي إلى نشــوب خلافات حــادة بين الزوجين، وبالتالي بين الأسرتين.

حكم الإصلاح بين المتخاصمين في الإسلام

١- الاستحباب : وهو الأصل في الإصلاح بين المتخاصمين.

٢- الواجب العين: إذا التجأ إليه المتخاصمان وعيّناه بالذات.

٣- الحرام: ما كان واراءه مفســدة كبيــرة، والمصلح آثم، كتاجر مخدرات يعلم زوجتــه تعاطيهــا، عن النبي ﷺ : (الصلح جائزٌ بين المســلمين إلاّ صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً)[٢] .

٤- المكروه : في حال ترتب على الصلح ضرر يقع على أحد الطرفين.

التأصيل الفقهي لمسألة التحكيم الشرعي

الأصل القرآني : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾(النساء).

(إن) الشــرطية .. الأصل فيها منع صاحبهــا من أن يقع في محذور لا يتمناه،

١- البخاري ٢٦٩٢.

٢- حكم الالباني صحيح، ابن ماجه ٢٣٥٣

ومن أمثلتها في القرآن الكريم :﴿ ... إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ... ﴿٢٢٩﴾ ﴾(البقرة)، ﴿ ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ... ﴿٢٢٩﴾ ﴾(البقرة)، ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... ﴿١٢٨﴾ ﴾(النساء)، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾(النساء).

لـو فهمت الأمة مقاصـد (النظرية الاحتياطية الاحترازيـة) لما وقعت في الطلاق، فلقد بيّن الشرع الدّاء وشخص له الدواء.

لقد فهم بعض الرجال خطأً بأن تأديب الزوجة الناشز يكون بالضرب المبرح كمـا جاء في قوله تعالـى :﴿ ... وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾(النساء)، لأنهم لم يفهموا معنى النشوز ولا الهدف من الضرب.

النشـوز: خروج المرأة عن نواظم البيت الذي يؤدي إلى تضييع الأولاد، وليـس هو اختـلاف الزوجين بـالآراء وبوجهـات النظر، وقد يكـون من كِلا الزوجيـن في الخروج عن الضوابط الشـرعية في حقوق وواجبات كلٍ منهما، فالنشـوز خروج الأمر عن نصابه كعدم الطاعـة ورفع الصوت والخروج من البيت ﴿ ... إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ... ﴿١﴾ ﴾(الطلاق)، والفاحشـة المبينة هنا ليست الزنى بل كل أمر واضح وظاهر كعدم الطاعة.

وكي لا تصل بنا الأمور إلى النشوز كانت (النظرية الاحترازية) بأبعادها الثلاثـة (الوعظ، ثـم الهجر، ثم الضـرب)، ﴿ ...فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ... ﴿٣٤﴾ ﴾(النساء).

١ـ الوعظ: الله تعالى لما خلقك ميزك عن سـائر مخلوقاته بالعقل، وجعلك خليفته، وسـخر لك ما في السماء وما في الأرض ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿١٣﴾ ﴾(الجاثية)، فيمكنك من خلال العقل أن تنصح وتذكر بالعواقب.

٢ـ الهجـر: المـرأة بحد ذاتها كتلة من المشـاعر والأحاسـيس، وبهجرك مضجعها تعاقبها وتؤثر بشكل كبير عليها وعلى مشاعرها.

٣ـ الضرب: بضوابطه من الكتاب والسـنة، فلا استخدام لليد بحضور العقـل، إلا فـي حالة المعتـدي عليك، ثم لا بـد أن نفهم بـأن الضرب جاء بصيغـة تدريجية، فحالـة الضرب كانت موجودة في الجاهلية على شـرب

الخمر وغيرها، وتدرج معها القرآن الكريم ليصل إلى مفهوم شرعي، وهو ﷺ القائل : (ولن يضرب خياركم)[١]، وهو ﷺ من نهى عن ضرب الوجه والتقبيح (لا تضرب الوجه ولا تقبّح)[٢]، ثم هل ﴿ ... وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ ... ﴿٣٤﴾ ﴾(النساء). أمر يفيد الوجوب أو الإباحة، وقد ورد الكثير من الآيات المشابهة بصيغ الإباحة لا الوجوب كـ: ﴿ ... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ... ﴿١٨٧﴾ ﴾(البقرة) فهو للإباحة وليس للوجوب (فلا إثم على من لم يطلب الطعام في السحر)، ثم ليس بالضرورة أن يكون معنى الضرب أي العنف، فقد يكون بمعنى التعطيل والمنع ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف)، وقد يكون بمعنى الصوت الناشئ عن إيقاع جسم على جسم وقرعه به﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴿١٠١﴾ ﴾(النساء)، وما عُرف عن النبي ﷺ أنه أوجع أو ضرب زوجة قط، فعنه ﷺ: (ليس المروءة أن يضرب الرجل زوجته أول النهار يدعوها إلى فراشه في آخره)، وعنه ﷺ مخاطباً إحدى زوجاته : (والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك)[٣].

حكمة مشروعية التحكيم

تنبع أهمية التحكيم في كونه يحقق العديد من المصالح والمقاصد، كما أقرها التشريع الإسلامي، والناظر في النصوص الشرعية والتطبيق العملي يجد مكانة خاصة للتحكيم، ومن هذه المصالح والمقاصد :

١- الإسراع في فض النزاع،ذلك لأن المحكَّمين يكونان عادة متفرغين للفصل في هذه الخصومة، وليس عندهما خصومات أخرى.

٢- تلافي الحقد والعداوة والبغضاء بين الزوجين قدر الإمكان،فالحكمان مختارانبطيب نفس من قبل الزوجين، فهما حائزان على ثقتهما، مما يجعل الحكم كأنه صدر من مجلس عائلي وفي داخل أسرة واحدة.

١- الألباني غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام - (١ / ١٥٦) ٢٥١

٢- رواه أبو داود ٢١٤٢

٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٨٤١١.

٣- حفظ العلاقة الطيبة بين الأقارب، بخلاف التنازع أمام القضاء، فالتحكيم يحقق العدل بلا عداوة بين الخصوم، بخلاف القضاء الذي يحقق العدل لكنه كثيرًا ما يخلف وراءه العداوة والأحقاد بين المتنازعين، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم عند التحكيم في الشقاق بين الزوجين ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴿٣٥﴾﴾(النساء) .

٤- إن التحكيم فيه روح الاعتدال، ففي القضاء الهيبة والوقار، وفي الوساطة الترجي والشفاعة، ويأتي التحكيم وسطًا بين صلابة القضاء ومرونة الوساطة.

كيفية التحكيم بين الزوجين

الأصل فيه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾(النساء) .

تشير الآية إلى ضرورة وجود طرفين في الإصلاح،والمستحب أن يكون حكمًا من أهله وحكم من أهلها لأنهما أعرف بالحال وأشفق، فإذا اجتمعت لدى المصلحين مصالح الزوجين قارنا بين المصالح المشتركة للإبقاء على الحياة الزوجية أو المفاسد المحتملة لفساد الحياة بينهما، فيجريان فيما بينهما بعد ذلك موازنة بين الأمور.

إن عموم ما هو مطلوب عند اختيار الحكمين، قبل خوض التفصيل في شروطهما، أن يكونا من أهل الخبرة والحكمة والصلاح والمعرفة بشؤون الصلح، لنحفظ البيوت والأسر من التصدع والأطفال من التشرد، فالإسلام حريص على دعم الأسرة، وقيامها على المودة والرحمة والألفة، كما أن الإسلام أمر بالصبر والصفح وحسن الخُلق والعشرة بالمعروف بين الزوجين.

مهام المحكمين

١- التعرف على أصل الشقاق، وحصر المفاسد التي تلحق الضرر بالزوجين، وإمكانية تقليلها أو اضمحلالها.

٢- بذل الجهد للإصلاح خلال مدة معقولة لا تقل عن الشهر، والاستعانة بالأقارب والأصدقاء، وجمع المصالح التي معها استدامة الحياة بينهما، ومدى تكثيرها وانتشارها.

٣- يجتمع المحكمان مع الزوجين في جلسة مغلقة، ليس فيها من الشواغل ويذكرانهما بالله تعالى في لزوم أداء الحقوق، والقيام بالواجبات، وأن يستمعا منهما، ويطلبا ألا يقاطع أحدهما الآخر حتى يفرغ الآخر من شكواه.

٤- قد لا تفي جلسة واحدة، فلا مانع من تعدد الجلسات للخروج بتصورٍ شامل للمشكلة بأبعادها وأطرافها.

٥- تحديد المسؤولية إن كانت على الزوج أو على الزوجة أو على كليهما، ويتبين للمحكمين، بعد هذه الموازنة، الطبيعة التي يشيران بها على الزوجين لاستدامة الحياة، ليتعاهدا على القيام بها، وعدم التفريط فيها.

٦- إن وجد المصلحان أن ثمة ثغراتٍ لا بد أن يُشار بها لأحد الزوجين أو كليهما، على حدة، لأجل أن يقوى جانب الصلح فهو حسن.

٧- على المصلحَين أن يتكفَّلا بوضع شروط أو ضوابط تكفل البعد عن الانتكاسة، لأن الصلح إذا لم يَفِد فستؤول الأمور إلى تدهورٍ أسوأ حالاً وأصعب مآلاً.

٨- مراقبة الوضع عن بعد، وسرعة التدخل للعلاج الطارئ فيما لو اعوجَّ المسار وفي الإمكان تدارك الأمر قبل انهياره.

صفات الحكمين

١- البلوغ والعقل.

٢- العدالة : هي الالتزام بأوامر الله تعالى، بإداء أحكام الشريعة، واجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر، والترفع عن كل ما يخرج بالمروءة والخلق الحسن، ويلحق بها صفة (الإسلام) فيجب اختيارهما من أهل الصلاح والتقوى، وممن يخافون الله في تحكيمهم.

٣- حسن النظر : أي القدرة على القيام بهذا الدور، بمعرفة الأحكام المتعلقة بالحقوق الزوجية، وامتلاك الخبرة الاجتماعية، وهذا يستوجب بأن يكون الحكم

مخالطاً للناس لا منعزلاً عنهم، متزوجاً لا أعزب، ويلحق بهذه الصفة (الفراسة) وهـي المهارة في التعرف على بواطن الأمور من ظواهرها، عن النبي ﷺ : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[1]، ومن الفراسة ما هو كسبي ومنها ما هو وهبي.

٤- **العلـم بالفقه:** ليـس بالضرورة بأن يكون المحكّم مجتهـداً مطلقاً، لكن من الضروري معرفته بأحكام الزواج والطلاق والميراث والأحوال الشخصية وواجبات وحقوق كل من الزوجين، ويلحق بهذه الصفة (العلم بأصول وقواعد التحكيم القانونية) وكذلك صفة (الذكورة).

٥- **ومـن صفات المحكم الناجح :** اللباقة وحسـن النظـر، أمانة الحديث، الصبر، الانسحاب عند الغضب، والاستعانة بالله والدعاء.

من لا يصلح للتحكيم

١- **الأصـول والفروع :** الأب والجد وإن علا، والأبـن والحفيد وإن دنا، والزوجان ولو انفصلا (فمن لا تجوز شهادته لا يجوز بأن يكون محكماً).

٢- **وكيله :** لأنه سـيحكم لصالح وكيله، والوكيل هنا هو من نظم أو باشـر الوكالة بنفسه.

٣- **النائب الشرعي :** أي الولي أو الوصي أو الوكيل القضائي أو القيم على المعتوه.

٤- **الشاهد في الدعوى :** لأنه يشهد لصالح أحد الزوجين.

٥- **كاتب المحكمة :** إن كانت الدعوى منظورة في المحكمة ذاتها.

الخاتمة

اهتـم الإسـلام اهتمامـاً كبيراً بالأسـرة وأحـكام نظمها وتماسـكها، ودعا لإصلاح ذات البين من خلال الوعظ والحوار والتحكيم ﴿ ...فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ

١- تفسير القرطبي " ج١٠ ص٤٢ "

...﴿١٠﴾(الحجرات)، فكان الإصلاح مانعاً لهلاك الأمة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾(هود)، وكان للمصلح أجرٌ عظيم ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾(النساء).

فالمصلح ذلك الشخص الذي يبذل جهده وماله وجاهه ليصلح بين المتخاصمين، نفسه تحب الخير وتشتاق إليه، يبذل ماله ووقته، ويقع في حرج مع هذا وذاك، ويحمل هموم إخوانه ليصلح بينهم، لذلك كان الإصلاح بين الناس عبادة عظيمة يحبها الله تعالى[1].

١- الأربعون الهنية للدكتور محمد هاني الشعال.

نشاط
مجمع السيدة رقية عليها السلام

إعداد : أحمد الأخرس
مدير الشؤون الإدارية

المنتدى الديني والعلمي في دار الأسد للثقافة والفنون (الأوبرا)

شاركت جامعة بلاد الشام في المنتدى الديني والعلمي الذي أقيم يوم الثلاثاء ٢٠١٨/٣/٢٧م في دار الأسد للثقافة والفنون (الأوبرا) بمناسبة الذكرى الخامسة لاستشـهاد العلامة الإمام محمد سعيد رمضان البوطي برعاية وزارة الأوقاف وتخلله تخريج الدفعة الخامسـة للعام الدراسي ٢٠١٦/٢٠١٧م من طلبة جامعة بلاد الشام بفروعها الثلاثة، بحضور السيد وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور عبد السـتار السـيد والدكتور بطرس ميالـة معاون وزير التعليـم العالي ولفيف من السادة العلماء وذوي الطلبة والحضور الكرام.

وتم افتتاح الحفل بالوقوف دقيقة صمت وقراءة سورة الفاتحة على أرواح شهداء الوطن ومن ثم النشيد العربي السوري، وتخلل الحفل فيلم وثائقي عن حياة الشهيد وكلمة الخريجين التي ألقتها الخريجة الأولى على مستوى جامعة بلاد الشام الطالبة فاطمة خفاجة (وهي خريجة مجمع السيدة رقية عليها السلام)

ثم تلا ذلك كلمة رئيس الجامعة الدكتور تيسير أبو خشريف وكلمة آل الفقيد للدكتور محمد توفيق رمضان البوطي رئيس اتحاد علماء بلاد الشام، ثم كلمة الاتحاد الوطني لطلبة سورية وكلمة للطوائف المسيحية لنيافة المطران متى الخوري النائب البطريركي لبطريركية السريان الأرثوذكس وبعدها كانت كلمة المجامع الثلاثة بدءاً بكلمة السيد عبد الله نظام رئيس مجمع السيدة رقية عليها السلام.

واختتم الحفل بكلمة راعي الحفل الأستاذ الدكتور عبد الستار السيد رئيس مجلس أمناء جامعة بلاد الشام - وزير الأوقاف.

ثم جرى بعد ذلك تكريم الطلاب الأوائل من كل فرع وفيما يأتي أسماء طلاب مجمع السيدة رقية عليها السلام الأوائل في كل قسم:

الطالبة: فاطمة محمد خفاجة / قسم الاقتصاد - شعبة المصارف والتأمين بمعدل قدره: ٩٥,٥٨٤٪

الطالبة: زينب محمد علي المسكي/ قسم الاقتصاد - إدارة الأعمال بمعدل قدره: ٨٩,٥٠٥٪

الطالب : حسين محمد عبد الكريم / قسم الشريعة/ بمعدل قدره: ٨٨,٩٤١ ٪

الطالب: كنان نبيل الشاهين أبو دهن / قسم الحقوق بمعدل قدره: ٨٨,٠٣٥٪
الطالبة: وصال طالب عبدو / قسم الفلسفة بمعدل قدره: ٨٢٪
الطالبة: فاتن فريد الزربا / قسم التربية بمعدل قدره: ٧٩,٨١٦٪
الطالبة: بتول عماد حسن/ قسم الإعلام بمعدل قدره: ٧٧,٨٥٦٪
الطالبة: أريج مصطفى نقيب / قسم اللغة العربية بمعدل قدره: ٧٥,٨٣٣٪

معرض الإبداع العلمي والفني الأول

أقيم معرض الإبداع العلمي والفني الأول في مجمع السيدة رقية عليها السلام في قاعة المؤتمرات العلمية من تاريخ ٢٠١٨/٣/٢٨م ولغاية ٢٠١٨/٤/٥م .بمشاركة واسعة من الطلبة وخصوصاً قسم التربية بإشراف الدكتور إلياس أبو يونس رئيس القسم وقسم الإعلام بإشراف الدكتور نزار جديد وبعض السادة المدرسين وافتتح المعرض الأستاذ الدكتور تيسير أبو خشريف رئيس الجامعة بحضور السيد رئيس المجمع السيد عبد الله نظام ونائبه الإداري وعمداء الكليات ورؤساء الأقسام وبعض أعضاء الهيئة التدريسية والطلبة في المجمع.

وقد تجول السيد رئيس الجامعة في أقسام المعرض واستمع لشروحات بعض الطلبة والقائمين على المعرض عن الأعمال المقدمة وخصوصاً الوسائل التعليمية وكيفية مساعدتها لتطوير العملية التعليمية.

وشاهد مع السادة الزوار فيلماً قصيراً من أعمال بعض طلبة الإعلام واطلع أيضاً على جناح معرض الكتاب المقام على جانب معرض الإبداع العلمي والفني.

وأثنى في نهاية الجولة على الأعمال المقدمة والجهود المبذولة من قبل الإدارة الكريمة والمشرفين والقائمين على المعرض وتمنى لهم المزيد من التوفيق والنجاح.

المحاضرات الثقافية

تابع مجمع السيدة رقية عليها السلام النشاط الثقافي الذي أطلقه منذ بداية العام الدراسي الحالي فجاءت المحاضرة السادسة ضمن هذا النشاط بتاريخ الأحد ٢٠١٨/٣/٤م للأستاذ جمال جزان بعنوان «التكامل بين النزعة الإنسانية والعلاقة مع الله»، حضرها بعض أعضاء الهيئة التدريسية والإدارية في المجمع وحشد من الطلبة والضيوف الكرام وأشار فيها إلى أن العلاقة بين الإنسان وخالقه لم تكن يوما، مجرد علاقة عابرة عارضة.. ولم تمثل في جوهرها وصفائها، إلا منهج التكامل الإنساني الحقيقي على الصعد كافة...لكنها، وانطلاقاً من واقع القصور والتقصير الإنسانيين، لم تسلم من التشويه والانحراف عن مسارها الصحيح، ولعل في شواهد التجربة البشرية مايؤكد ذلك، إلا أن أبرز وأقسى نماذج الانحراف تجلى في تجربة القرون الوسطى في أوروبا؛ حيث انقلب المسار إلى نقيضه، وبات مايفترض فيه السمو والتكامل؛ سحق اللإنسان وتحطيمه!

وأضاف أن هذه المأساة، دفعت الإنسان إلى البحث عن الخلاص في

داخله، وعبر قدراته الذاتية، إلا أنه لم يلبث أن وجد نفسه مغتربا عن ذاته! فلم تستطع «النزعةالإنسانية»، بكل مراحلها، الجمع بين الإنسان ومايعيشه في وجدانه وفطرته، رغم هيمنته العلمية والتقنية الفائقة على الطبيعة! ليكتشف أنه عندما قطع الصلة؛ سلوكياً؛ واجتماعياً؛ واقتصادياً.. بعطاءات رحمة خالقه عز وجل؛ أوكل أمره لما صنعته يداه! وبدل أن يكون السيد الحر، ويسخر ما أنتجه في سبيل تشييد مشروع إنسانيته؛ أضحى تائهاً مستلباً لزحمة انجازاته....

لكنها انطلاقاً من واقع القصور والتقصير الإنسانيين، لم تسلم من التشويه والانحراف عن مسارها الصحيح، ولعل في شواهد التجربة البشرية مايؤكد ذلك، إلا أن أبرز وأقسى نماذج الانحراف تجلى في تجربة القرون الوسطى في أوروبا؛ حيث انقلب المسار إلى نقيضه، وبات مايفترض فيه السمو والتكامل؛ سحقاً للإنسان وتحطيما!

وختم الأستاذ جمال بأن أهمية الموضوع تتجلى في ضرورة تسليط الضوء على السبب الحقيقي الذي يقف وراء مآسينا التي نعيشها، فقد ألبس الاجرام والتطرف ثوباً دينياً لتشويه مشروع الدين الإنساني النقي، لترسخ مغالطة في أذهاننا تربط بين الدين والتخلف، وتحصر التحضر في جانبه التقني، دون الاكتراث بقيم الإنسانية، وتحقيق العدل والمحبة!!

ثم كانت المحاضرة السابعة بعنوان «ثقافة الشكوى» للدكتورة يسرى المصري بتاريخ الأحد ٢٠١٨/٣/١١م.

وحضرها الشيخ الدكتور نبيل الحلباوي نائب رئيس المجمع للشؤون العلمية والدراسات العليا بالإضافة إلى عدد من أعضاء الهيئتين الإدارية والتدريسية في المجمع وبعض الطلبة والضيوف الأكارم أشارت فيها أن المواطن شريك أساسي مع الجهات الرقابية لأنه على احتكاك مباشر مع الفاسدين ومضطر للتعامل معهم في أي دائرة من دوائر الدولة، فمن واجبه الإشارة إلى أماكن الخلل والفساد.

وختمت الدكتورة يسرى أنه من الضروري إشاعة ثقافة الشكوى بين الناس وأنها حق من حقوقهم ولكن من الواجب عرضها بأسلوب لائق حتى يستطيع المواطن التوصل إلى حقوقه بشكل كامل وتام.

وجاءت المحاضرة الثامنة والأخيرة من النشاط الثقافي لهذا العام الدراسي بعنوان «متطلبات الدراسة الناجحة ومفهوم التفوق» للدكتورة سلوى مرتضى بتاريخ الأربعاء ٢٠١٨/٤/٤م حضرها الشيخ الدكتور نبيل الحلباوي نائب رئيس المجمع للشؤون العلمية والدراسات العليا

وبعض أعضاء الهيئتين التدريسية والإدارية والضيوف والطلبة الكرام ولخصت الدكتورة سلوى أهم متطلبات الدراسة الناجحة بالآتي:

أولاً: البيئة المناسبة (مكان الدراسة) . ثانياً: أوقات الدراسة الناجحة.ثالثاً: الاستماع لشرح المدرس.

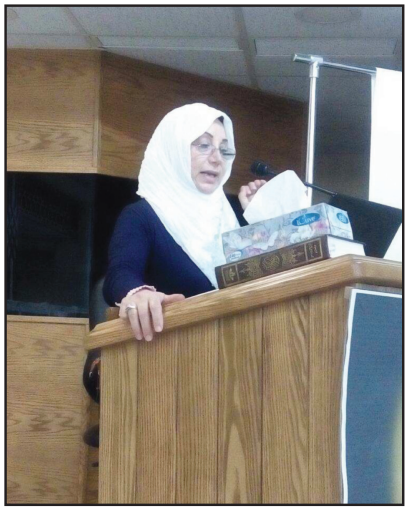

رابعاً: مهارة تركيز الانتباه.خامساً: مهارة الدراسة الفعالة.سادساً: مهارة التركيز الجيد اثناء الدراسة.

سابعاً: الاهتمام بالغذاء والرياضة.ثامناً: مهارة ادارة الوقت.تاسعاً: قانون الاولويات في الدراسة الناجحة.

عاشراً: مهارة الاستعداد للامتحان.

وختمت الدكتورة محاضرتها: أن الدراسة الجيدة تحتاج لدافع داخلي يدفع الطالب للإنجاز والتفوق ولا بد من التعاون بين المربين والأهالي لتحقيق الجو الملائم لدراسة الطلبة وتفوقهم، ولابد للطالب معرفة ما يريد وكيفية تحقيق ذلك وضرورة الاستماع لنصائح المدرسين والأهل وأن العلم جواز سفر يعبر فيه الطالب الحدود الفكرية والثقافية ويصل فيه لغاياته المرجوة، وأن الطالب لا يستطيع أن يحقق النجاح والتفوق إلا من خلال نشاطه الذاتي، إلا أن هذا النشاط يحتاج إلى استراتيجية واضحة يسير وفقها الطالب من بداية العام الدراسي إلى نهايته وفق الشروط التي تم ذكرها أعلاه، فالتعلم المتقن هو الطريق للنجاح والتفوق الدراسي، ثم أجابت الدكتورة على استفسارات وأسئلة الحضور الكرام.

صدق الله العظيم
١٧ عشرين ١٤

الإنسان... بين محراب العبادة وميدان السلوك والمعاملة

الدكتور محمد نظام
نائب رئيس مجمع السيدة رقية عليها السلام للشؤون الإدارية

الإسلام ليس شعائر ومناسك وعبادات فحسب، بل هو أيضاً قيم ومنهج حياة، إنّه ليس صلاةً وصوماً وحجاً وزكاةً فحسب، بل هو صدق وأمانة ووفاء بالعهد، والتزام بالوعد، وعطف وتسامح، واتقان عمل وحسن جوار، ودماثة خلق، وامعان عقل، وتدبر في خلق الله.

وقد كرّم الله الإنسان بنعمة العقل، وميّزه بذلك عن بقية مخلوقاته، وجعل الإسلام ديناً شاملاً وخاتماً للأديان والرسالات، ديناً للعقل كما للقلب والروح. وأمّا الغاية المنشودة من تشريع العبادات في الإسلام فهي تكمن في تزكية النفس، وتهذيبها بين الإنسان وربّه، والناس من حوله.

فالصلاة وهي عمود الدين قد شرّعت لتحقيق الصلة مع الله،وتعزيز الامتناع عن الفحشاء والمنكر، وتحصين الفرد و المجتمع.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(العنكبوت)

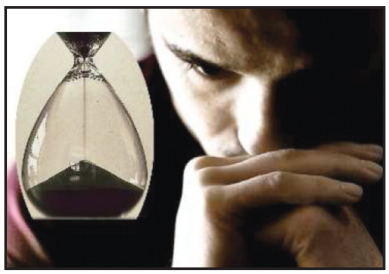

وأمّا عبادة الصوم وهي تلك الدورة العبادية الروحية السنوية التي يتمرس الإنسان بها على الصبر وسائر خصال البرّ والتقوى، فمن الامتناع لساعات عن مباحات الطعام والشراب والجنس، إلى تمكين النفس

من مقاومة شـهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة على مدار الأيام والشهور. وقد أشار القرآن الكريم إلى ثمرة الصوم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾(البقرة)

وأمّـا عبادة الزكاة ففي أدائها تترعرع الألفة بين القلوب، وينمو الإحسـان بين الناس، وتتطهر النفوس. وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة:

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(التوبة)

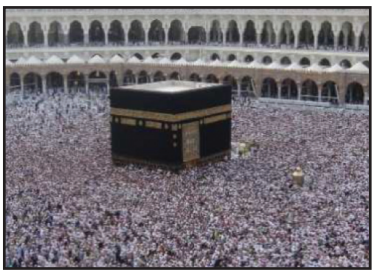

وأمّـا عبادةالحج ففيها تتم سـائر الفضائل الدينية التي تغرسها مناسكها في قلب المسلم.

﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾(البقرة)

هذا على صعيد الغاية من تشـريع العبادات في الإسـلام، أمّا بالإجمال فإنّ أغلـب الآيات الكريمة قد قرنت الإيمان بالعمل الصالح، أي أنّها قرنت العبادة بالسلوك.

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾(العصر)

انفصام الشخصية المجتمعية (التدين الشكلي)

كمـا يمرض الإنسـان تمـرض المجتمعـات.. ومجتمعنا اليـوم واحد من المجتمعـات التي باتت تعاني من انفصال العقيدة عن السـلوك، انفصال التدين عن الأخلاق، وتفشي ظاهرة التدين الظاهري الشكلي، وهذا المرض جاء نتيجة تراكميـة لتلك الحرب الفكرية الموجهة ضد مجتمعاتنا والتي يراد بها أن نكون أمة نص لا أمة فعل.

حرب ناعمة سلاحها الأمضى غزو فكري إعلامي تربوي هادئ، أصبحت في ظله قراءة الدين قراءة إجرائية أكثر منها سلوكية، قراءة تفصل الدين عن السلوك والأخلاق، بل تختصره في بعض الإجراءات التي إذا ما أتمها الإنسان صار متديناً!!

إنّنا نعيش اليوم في زمن تردّي بعض الأخلاقيات أو تراجعها عند الكثيرين سواء في السلوكيات اليومية أو أخلاقيات العمل أو حتى في قواعد تعاملنا مع الأهل والأصدقاء.

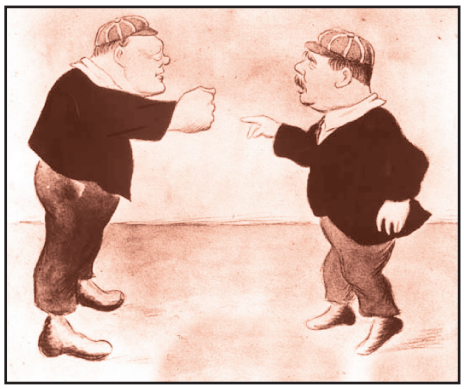

وأرغب في هذا المجال اقتباس بعض ما كتبه د. علاء الأسواني[1] في مقالة له[2] بعنوان: « التدين الشكلي» جاء فيها: «على مدى سنوات، عملت في هيئة حكومية كبرى تضم آلاف العاملين، وفي اليوم الأول بينما كنت أعالج أحد المرضى، انفتح باب العيادة وظهر شخص قدّم نفسه باسم الدكتور حسين، ثم دعاني لأداء صلاة الظهر جماعة فاعتذرت حتى انتهي من عملي ثم أؤدّي الصلاة.. ودخلت في مناقشة كادت تتحول إلى مشادة، لأنه أصرّ على أن أترك المريض لألحق بالصلاة، واصررت على استئناف العمل. اكتشفت بعد ذلك أن أفكار الدكتور حسين شائعة بين كل العاملين في الهيئة. كانت حالة التدين على أشدها بينهم. العاملات كلهن محجبات. وقبل آذان الظهر بنصف ساعة على الأقل ينقطع العاملون جميعاً تماماً عن العمل، ويشرعون في الوضوء وفرش الحصير في الطرقات، استعداداً لأداء صلاة الجماعة، بالإضافة طبعاً إلى اشتراكهم في رحلات الحج والعمرة التي تنظمها الهيئة سنوياً. كل هذا لم أكن لأعترض عليه، فما أجمل أن يكون الإنسان متديناً، على أنني سرعان ما اكتشفت أن كثيراً من

١- علاء الأسواني: أديب مصري، طبيب أسنان، يكتب القصة القصيرة والرواية.
٢- مقالة (التدين الشكلي): المنشورة في صحيفة مصرية (الحدث بين ايديك) تاريخ ٢٩ آب ٢٠١٧

العاملين بالرغم من التزامهم الصارم بأداء الفرائض يرتكبون انحرافات جسيمة كثيرة بدءاً من إساءة معاملة الناس والكذب والنفاق وظلم المرؤوسين وحتى الرشوة ونهب المال العام، بل إن الدكتور حسين الذي ألح في دعوتي للصلاة، تبين فيما بعد أنّه يتلاعب في الفواتير ويبيع أدوية لحسابه.إنّ ما حدث في تلك الهيئة يحدث الآن في عالمنا كله، مظاهر التدين تنتشر في كل مكان لدرجة معهد جالوب الأمريكي، في دراسة حديثة له، يعتبر العالم العربي من أكثر الشعوب تديناً على وجه الأرض، وفي نفس الوقت فإنها تحتل مراكز متقدمة في الفساد والرشوة والتحرش الجنسي والغش والنصب والتزوير « انتهى الاقتباس.

روي عن الإمام علي عليه السلام: «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلّا رسمه، ومن الإسلام إلّا اسمه، ومساجدهم يومئذ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكّانها وعمّارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة وإليهم تأوي الخطيئة....»[1] .

لعلّ الإمام علي عليه السلام قصد بهذا الاستشراف العبقري للمستقبل التفريق بين تدين (شكلي) يحصر الدين في الشعائر والمظاهر، وآخر (جوهري) يهتم بروح الدين وقيمه وتعاليمه الحقيقية.

التدين الشكلي

ينمو مع تراجع المجتمع وتخلّيه عن القيم الجوهرية للدين، وهو تدين سهل وغير مكلف يمنح صاحبه إحساساً كاذباً بالطمأنينة والرضا عن النفس، فما دام الفرد يؤدّي شعائره بانتظام فهو يعتقد أنّه قد أدّى واجبه الديني كاملاً غير منقوص.

نظرة على واقع مجتمعنا

إننا وبكل سهولة يمكننا رصد حالات عديدة في مجتمعاتنا بدءاً من سلوك وتعامل أغلب الموظفين في قطّاعاتهم المختلفة، مع المواطنين المراجعين لهم، ومروراً

١- نهج البلاغة/٢٣٤

بممارسات الكثير من الباعة وأصحاب المحلات، من غش في بضاعتهم، وتلاعب في الأسعار، وإشغال للأرصفة والطرقات، إضافة إلى جولات وصولات الألسنة، في الغيبة والكذب وفحش الكلام، والنظر والاستماع الحرام، والانشغال غير المنضبط في وسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك ما يقوم به السماسرة والوسطاء، من ترويج الرشوة وإحلال الفساد مقابل السرعة في اتمام و إنجاز المعاملات الملتمسة، وانتهاءً بتجاوزات وتعدّيات بعض الوجهاء والمتنفذين مالياً .

إنّ ما نقصده من كل هؤلاء، أولئك الذين يقدمون أنفسهم في المجتمع على أنهم المتديونون، الحريصون على أداء الفرائض اليومية، والمستحبات، والصيام،وختم القرآن في شهر رمضان،وأداء مناسك العمرة والحج من قبل المستطيعين مالياً منهم.

أصناف الناس في المجتمع

تدين جوهري (عبادات وأخلاق)	تدين شكلي (عبادات دون أخلاق)	لا تدين (أخلاق دون عبادات)	لا تدين (لا أخلاق ولا عبادات)

محمد علي رشوان... قصة واقعية ومصداق ناصع للتدين

كان رشوان يعتبر أسطورة مصرية وفخر العرب، وحديث العالم كله في يوم من الأيام. في بدايته كان لاعب جودو متميزاً استطاع أن يكسب بطولات متعددة، حتى كسب بطولة افريقيا، لكن رشوان ظل بعيدا عن مسامع وأعين المصريين حتى سنة ١٩٨٤ موعد الأوليمبياد في لوس أنجلوس. لعب رشوان مباراة بعد أخرى وفاز في كل مباراة باكتساح، وفوجئ الجميع أن ابن مصر سيلعب المباراة النهائية، ومصر لأول مرة في التاريخ في طريقها إلى الفوز بميدالية أوليمبية ذهبية أو فضية. وبدأت الصحف تكتب والإذاعات تتكلم والتلفزيون يهلل باسم البطل، وبسرعة البرق عرفه كل المصريين، وسهر الشعب المصري والعربي يتابع ويدعو للبطل رشوان، ليكسب الميدالية الذهبية، بالرغم أن خصمه كان بطل أبطال العالم، الياباني الرهيب ياماشتا. لكن ومع بداية المباراة لاحظ المتابعون أمراً غريباً، رشوان كان في الالتحام مع خصمه لا يضربه في رجله! وذلك عجيب في لعبة الجودو، لقد خسر العديد من النقاط، وهنا سمع العالم كله صراخ مدرب رشوان وهو يقول له: اضربه في رجله الشمال وهات الذهب لمصر، لكن رشوان يرفض ولا يحاول أن يحرز نقطة بهذه الطريقة. وفازت اليابان بالذهبية، وفازت مصر بالفضية. وفي المؤتمر الصحفي يجيب رشوان على سؤال صحفي أجنبي عن سبب عدم تنفيذه لتعليمات مدربه حيث قال: وصلتني معلومة مؤكدة أن البطل الياباني مصاب بقطع في الرباط الداخلي للركبة اليسرى، وأن أي ركلة قوية فيها يمكن أن تدمرها تماماً، ولكنه أخفى الخبر، وقرر اللعب والتضحية لأنه يمثل وطنه.. وهنا سأله الصحفي: ولكنها كانت فرصة عظيمة للفوز، وتحقيق الذهبية لبلدك. فكان الرد التاريخي لمحمد

علي رشوان: ديني يمنعني أن أضرب مصاباً وأهدد مستقبله من أجل ميدالية!، وقف الجميع يصفقون طويلاً للبطل المسلم.. وبعدها كرّمته اليونسكو على تلك الأخلاق العظيمة وتم اختياره كصاحب أفضل أخلاق رياضية في العالم، ومنحته اللجنة المنظمة ميدالية ذهبية فخرية لاستحقاقه الفعلي لها وذاع صيته في العالم كله، وكرّمه اليابانيون بشكل خاص واستقبلوه في زيارته بعد ذلك لليابان كملك متوج. وبعدها بدأ الملايين يبحثون عن هذا الدين العظيم الذي يأمر من يعتنقه بتلك الأخلاق الكريمة! وتشير البيانات والإحصائيات إلى أن أكثر من خمسين ألف شخص حول العالم أعلنوا إسلامهم بسبب هذا الموقف، ومنهم كانت ريكو تلك الفتاة اليابانية التي أحبته وأحبها وتزوجها وأنجبت منه علياً وعَمراً وعلياء، وعاشوا جميعاً بالاسكندرية بعد أن أصبح فيما بعد حكماً دولياً مرموقاً وعضواً في الاتحاد العالمي للعبة ورجل أعمال إسكندراني. وربما لو كان رشوان قد فاز بالذهبية لما كان حصل على نصف ما ناله من تكريم وتقدير وحب في قلوب العالم.إنها الأخلاق والسلوك جنباً إلى جنب مع العبادات.

إنّ الفضيلة تتحقق من خلال التدين الحقيقي المرادف تماماً للأخلاق، وأمّا الأخلاق والمعاملات وحدها دون المظاهر العبادية فهي تبقى أفضل بكثير من حالة التدين الخالية من الأخلاق.

علاج وختام:

في إطار العلاج والحدّ من تفشي ظاهرة التدين الشكلي لا بد لنا من إجرائين:

أولهما: نشر التوعية والتنبيه إلى أهمية السلوك والأخلاق فهي الغاية من بعثة خاتم الأنبياء. فقد روي عن الرسول الأكرم ﷺ: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

و كذلك استشعار الخطر الكبير الناجم من اقتصارنا على مظاهر الدين وقشوره، وتمسكنا بشكلياته،التي ليس لها منعكس عملي على سلوكنا وتعاملنا مع الوالدين والزوجة والأبناء وعموم الأقارب والأصدقاء، وكل من نعيش معهم من جوار في السكن، وزملاء في العمل، وشركاء في الوطن، ونظراء

في الإنسانية، وما ينجم عن ذلك من خسران في الدنيا قبل الآخرة على الصعيد الفردي، وابتعاد عموم الناس عن الدين ونفورهم منه بسبب سلوكيات وممارسات العديد من أتباعه.

ثانيهما: تكريس المزج بين العبادات والأخلاق في الحياة العملية بشكل عام، و في مجال التربية بشكل خاص، فكما نقومبتعليم الأطفال منذ صغرهم حب الصلاة والصيام وتلاوة القرآن، فإنّه يتوجب علينا ومن خلال سلوكنا العملي معهم،أن نغرس فيهم خصال الصدق والوفاء والأمانة والإخلاص، وحب الخير والعطاء للمجتمع والوطن ولمطلق الإنسان.

إنّ في السعي الدائم للإنسان مابين محراب العبادة وميدان الحياة، يتعانق القلب مع العقل، ويتلاقى الجسد مع الروح، وتتجسد خلافة الله في الأرض.

﴿ ... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة)

رمضان
وشجرة التمر الهندي

بقلم: ميسر سهيل
محاضر في مجمع السيدة رقية عليها السلام قسم الإعلام

عطشان تعال اشرب

يعتبر عصير التمر الهندي من المشـروبات التقليديّة والشـعبيّة التي اعتاد الناس على شربها وخاصّةً في شهر رمضان المبارك؛ إذيتصدر عصير "التمر هندي" لائحة المشـروبات الرمضانية في كل عام، وتكاد لا تخلو مائدة سورية في الشـهر الفضيل من هذا المشروب الشعبي الذي أصبح عُرفًا أساسيًا وطقسًا مـن طقوس شـهر رمضان،حيث تباع ثمـرة "التمر هندي" عادة على شـكل قوالب مجففةومغلفة، وتُفضّل أغلب السـيدات السوريات تحضيرها في المنزل على شراء المشروب جاهزًا.

ينتسب التمر الهندي إلى العائلة البقولية، وشجرته كبيرة الحجم يصل ارتفاعها إلى ٢٥ متراًوارفةالظلال تستخدم للتظليل والزينة،وهي ذات ثمار قرنية تشبه قرون الفول وذات طعم حامض، ولسطح القرون غلاف أسمر يكسو لبها الطري.أوراق الشجرة صفراء اللون وعنقودية الشكل ومركبة. والأزهار عنقودية صفراء زهرية اللون والخشب صلب لونه مائل إلى الحمرة، وحين تجمع الثمار تزال قشورها الصلبة ويؤخذ اللب البني اللحمي حمضي المذاق الذي يغلف البذور فيعجن لتتكون منه كتل سمراء، وربما تخلط بقليل من السكر يساعد على حفظها وعدم فسادها، ويعرف التمر الهندي بعدة أسماء منها الحمر والحومر والعرديب.

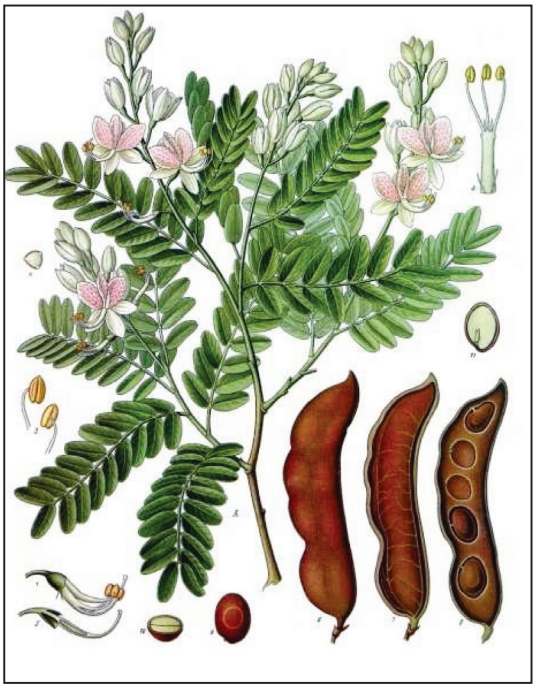

الموطن الأصلي

يقال إن موطن التمر الهندي الاصلي أفريقيا الاستوائية وعرف منذ القدم في السودان ومصر،ويقال إن موطنه جزيرة مدغشقروشرق أفريقيا ومنها انتشر إلى المناطق المدارية كفلوريدا، والمناطق القاحلة وشبه القاحلة كالسنيغال، النيجر، ساحل العاج والسودان، وقد انتشر إلى جزر الكاريبي والى أغلب بقاع العالم وخاصة المناطق الحارة.

لكن تسميته «التمر الهندي» ترجّح أن أصل الشجرة من الهند، فقد عرفه الهنود قديما وانتشرت شجرة التمر هندي هناك انتشاراً واسعاً، وأصبحت الهند من أكبر مصدّري التمر الهندي.

المواد الفعالة

يحوي التمر الهندي ما بين ١٦-١٨٪ احماضا منها حمض الليمون وحمض الطرطير وحمض الماليك ومواد عفصية قابضة والبوتاسيوم وأملاح معدنية مثل الفوسفور والمغنسيوم والحديد والمنجنيز والكالسيوم والصوديوم والكلور وغيرها، ويحتوي أيضا على فيتامين ب ٣وكذلك زيوت طيارة، وأهم مركباته جيرانيال وليمونين وكذلك بكتين ودهون ومواد سكرية،وقد أثبتت الدراسات الحديثة احتواء التمر الهندي على المضادات الحيوية القادرة على إبادة الكثير من السلالات البكتيرية المختلفة، هذا بجانب فوائده كمليّن ومضاد لحموضة المعدة.

في الطب القديم

قيل إن الفراعنةلهم الفضل الأول في إدخال زراعة التمر الهندي خلال العصور الوسطى إلى مناطق البحر الأبيض المتوسط، وقد عثر علماء الآثار على بعض أجزاء من التمر الهندي في مقابر الفراعنة، وجاء التمر الهندي في وصفة فرعونية في بردية ايبرز الطبية ضمن وصفة علاجية لطرد وقتل الديدان في البطن. ووصف أطباء الفرس القدامى منقوع التمر الهندي شرابا لعلاج بعض أمراض المعدة والحميات الناشئة عنها، ثم عرفت أوروبا هذه الفوائد العلاجية عن طريق العرب الذين حملوا معهم التمر الهندي إليها أثناء الفتوحات الإسلامية في القرون الوسطى.

شجرة التمر هندي العملاقة

قال أبو بكر الرازي عن التمر الهندي: «عصارة التمر الهندي تقطع العطش لأنها باردة طرية».

وقال ابن سينا «التمر الهندي ينفع مع

القيء والعطش في الحميات ويقبض المعدة المسترخية من كثرة القيء. ويسهل الصفراء، وطبيخ نصف رطل من شرابه ينفع في الحميات».

وقال ابن البيطار «التمر الهندي أجوده الطري، وهو يكسر وهيج الدم، مسهل وينفع من القيء والعطش ويسيل الصفراء وينفع من الحميات».

قرون ثمرة التمر هندي

وقال داود الانطاكي:التمر الهندي هو الصبار والحمر والحومر وهو شجر كالرمان وورقه كورق الصنوبر لا كورق الخرنوب الشامي، وللتمر المذكور غلاف نحوشبر،يوجد داخله حب كالباقلاء شكلاً ودونها حجماً، يسكن لهيب المرارة الصفراوية وهيجان الدم والقيء والغثيان والصداع الحار.

في الطب الحديث

أثبتت الدراسات العلمية أن التمر الهندي يحتوي على مضادات حيوية قادرة على إبادة الكثير من السلالات البكتيرية المختلفة الضارة بالإنسان، هذا بجانب فوائده كملين ومضاد للحموضة وملطف وخافض للحرارة، ولذلك تضيف بعض شركات الأدوية الخلاصة المائية لثمار التمر الهندي إلى أدوية الأطفال، ويقال عن التمر الهندي إنه ثمرة صحية منظفة تحسن الهضم وتطرد الأرياح وتلطف التهابات الحلق وتعمل كملين معتدل، ويعطى في الطب لفتح الشهية وتقوية المعدة، كما أنه يستعمل لتفريج الإمساك وعلاج الزحار وبالأخص إذا مزج معه الكمون والسكر.

وفي الهند يستعمل المواطنون صلصة التمر الهندي ضد الزكام والعلل الأخرى التي تنتج نزله مفرطة، ويعتبر في الطب الصيني عشبة مبردة ملائمة

لعلاج حرارة الصيف، ويعطى لفقد الشهية والغثيان والإقياء والإمساك أثناء الحمل، ويستعمل ضد زيادة حموضة الدم حيث يستخدم منقوع التمر الهندي لتخليص الدم من حموضته الزائدة وفي طرد ما يحتويه من سموم.

يستعمل التمر الهندي في الهند لإزاحة غازات المعدة ولترطيب الحلق وملين لطيف، وفي الصين يستخدم التمر الهندي لعلاج الدزنتاريا وعلاج البرد ولنقص الشهية،ولا توجد أي محاذير للتمر الهندي حتى بالنسبة للحوامل والأطفال، لذا يضاف التمر الهندي من قبل شركات الأدوية إلى أدوية الأطفال كخافض للحرارة.

بائع تمر هندي دمشقي

مشروب التمر الهندي

يحضر التمر الهندي بنقعه في الماء البارد لعدة ساعات أو في الماء المغلي لمدة قليلة ثم يغلى على النار مع إضافة بضع أوراق الكركديه وبذور الشمر إن توافرت. ثم يترك حتى يستقروييرد،حينئذ يصفى ويضاف إليه قليل من السكر، ويعتبر من المشروبات المفضلة لدى كثير من الناس، كما أنه يدخل في بعض المأكولات إذ يضاف إلى المحاشي وغيرها من الأطعمة كأحد المشهيات الجيدة.

التمر الهندي... قيمة غذائية وفوائد لا تعد

تحتوي ثمار التمر الهندي على العديد من المواد الغذائية، والمضادات الحيوية المفيدة لجسم الإنسان، أهمها الأملاح المعدنية مثل: البوتاسيوم، والمغنيسيوم، والحديد، والكالسيوم، كما يحتوي على الأحماض التي تشكل ١٨٪ من تركيبه، مثل: الطرطير، والماليك، والليمون، هذا عدا عن الفيتامينات

والزيوت الطيارة، بالإضافة إلى مواد دهنيّة وسكريّة.

ذكرت دراسات علمية أن التمر هندي يحتوي على مضادات حيوية قادرة على إبادة كثير من السلالات البكتيرية المختلفة، بالإضافة إلى كونه ملطفًا وخافضًا للحرارة،

وفي شهر الصيام يشتكي الصائمون عقب تناولهم وجبات دسمة على الإفطار من الإمساك وتلبكات معوية، لذا ينصح الأطباء بشرب التمر هندي على اعتبار أنه ثمرة منظفة تحسن الهضم وتطرد الأرياح وتعمل كمليّن معتدل.

ونظرًا لوجود الأحماض والمعادن في عصير التمر هندي فإنه يقلل من حالة الكسل والخمول والصداع التي يعاني منها أغلب الصائمين بعد الإفطار، ويعدّ من أكثر المشروبات التي تعطي إحساساً بالبرودة في فصل الصيف ومليّن جيّد للمعدة وخاصة للّذين يعانون من الإمساك، ويحتوي على مضادّات حيوية كثيرة تستطيع القضاء على البكتيريا، فيقوم بتطهير الجسم من الجراثيم الضارّة التي تغزوه،ويعمل على تخليص الدم من الحموضة الزائدة فيه،ومفيد جدًا للمرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم، ومسكّن لآلام الصداع.

ومن خصائصه أنه فاتح جيد للشهية؛ إذ إنّه يوصف في حالات النحافة الشديدة، ويعمل على تقوية المعدة في جسم الإنسان، كما يتمّ استخدامه في بعض حالات البواسير، وخاصّةً في حالات نزيف البواسير. ومن الجدير بالذكر أنّ عصير التمر الهندي خضع لدراساتٍ كثيرة، نتج عنها أنّه يقوم على حماية العظام من ترسّب الفائض من مادة الفلورايد،وكان الهنود يستخدمونه في علاج الزكام.

فوائد التمر الهندي الصحية

للتمر الهندي فوائد كثيرة للجسم تتمثل في أنّه:

* يسهّل عملية الهضم، ويلين المعدةويقوّيهاويعالج الاضطرابات فيها.
* فاتح للشهية ومبرّد للجسم في فصل الصيف.
* طارد للغازات والريح، ويخفّف من انتفاخات البطن.
* يلطف التهاب الحلق، ويعالج الزكام، وأمراض نزلات البرد.

* يقي الجسم من القيء، والغثيان، وخاصّة للمرأة الحامل.
*يعالج الإمساك، وينقي الدم، وينشّط عمل الكبد، ويجدد خلاياه.
* منعش للجسم، ويطفئ العطش.
* يعالج مرض الدزنتاريا ويخفض من ضغط الدم المرتفع.
* يسكن الآلام ويقضي على كافة أنواع البكتيريا التي تضرّ بالجسم، وذلك لاحتوائه على المضادات الحيوية.
* يكافح حموضة الدم ويطرد السموم والفضلات من الجسم.

فوائد التمر الهندي للريجيم

* يحرق الدهون المتراكمة في الجسم، وخاصة الدهون المتراكمة في البطن، وذلك بسبب احتوائه على الكثير من الأحماض.
* يعطي شعوراً بالشبع
* يحرق السعرات الحرارية .
* يرفع من مستويات الطاقة في الجسم دون الحاجة إلى مزيد من الطعام.

فوائد وأضرار التمر الهندي للحامل

لا يُسبّب التّمر الهندي أي أضرار للمرأة الحامل أو لغيرها، بل على العكس من ذلك تماماً فإنّ التمر الهنديّ يُوصَف للمرأة الحامل لما له من فوائدّ

عظيمة، ولكن يُفضل عدم الإكثار من شربه بحيثُ لا تتعدى الكميّة المشروبة كوبا واحداً في اليوم.

أما فوائده للحامل

١- إمداد المرأة الحامل بكميّة كافية من عنصر الحديد المهمّ، حيثُ يلعب الحديد دوراً كبيراً في قوّة الدم، وبحسب آراء بعض الأطبّاء وخبراء التغذية فإنّ تناول كميّة كافية من الحديد يقي الحامل من أعراض الولادة المبكّرة، ويساعد على ولادة جنين بوزنه الطبيعيّ.

٢- تعمل مادة النياسين الموجودة بكثرة في التمر الهنديّ في تكوين وبناء الجهاز الهضميّ للجنين، وتطوير بشرته وأعصابه.

٣- تُسهم الألياف الغذائيّة المتوفّرة في التمر الهندي في الوقاية من الإمساك الذي تعاني منه معظم السيّدات الحوامل، كما يقي من الزيادة الكبيرة في الوزن.

٤- يخفف من حدّة الغثيان المصاحب للحمل في الشهور الأولى منه، وذلك لاحتوائه على مكوّنات وعناصر مقاومة للتقيّؤ.

٥- يحدّ من حموضة الدم الزائدة، وذلك بطرده السموم الموجودة فيه.

٦- يلطف الجسم، بتخيفض درجات الحرارة، وخاصة في فصل الصيف.

٧- يحتوي على كميّات كبيرة من الفيتامينات، كفيتامين c و a و k الضروريّة لصحّة الجنين.

٨- يحسن عمليّة الهضم وطرد الغازات المعوية.

٩- يحمي الجنين من بعض التشوّهات التي قد تصيبه.

١٠- يقضي على الفيروسات، والبكتيريا التي قد تصيب المرأة الحامل؛ وذلك لاحتوائه على نسبة عالية وجيدة من المضادات الحيويّة.

وجدير بالذكر أن الاعتماد على مشروب عصير التمر الهندي الطبيعي بما يحتوي عليه من فيتامينات ومعادن له فوائد لا تحصى، ويعد أفضل من جميع المشروبات المصنعة إذ يدخل في تحضيرها العديد من المنكهات والملونات التي لا تخلو من آثار سلبية ضارةعلى صحة الإنسان

الجراثيم كائنات حية بدوام كامل

الدكتورة خلود الجزائري
مدرّسة التربية في مجمع السيدة رقية عليها السلام

مقدمة علمية

الجراثيم bacteria: متعضيات بالغة الصغر وحيدة الخلية موجودة في كل مكان. أشكالها مختلفة، فهناك الجراثيم العصوية bacilli، وهناك الجراثيم الكروية cocci وهناك الجراثيم اللولبية spirilla.

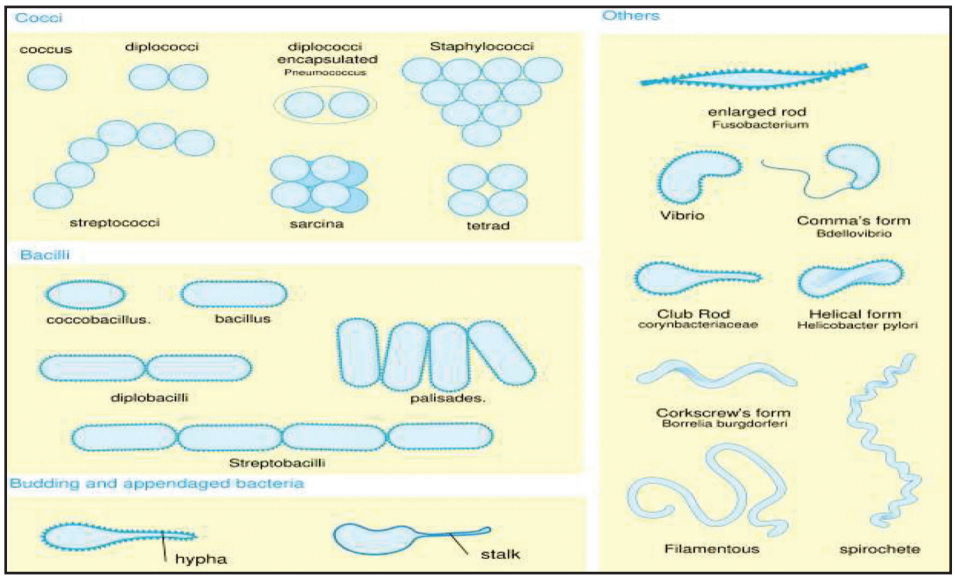

الشكل (١) أشكال الجراثيم المختلفة (عصوية – كروية حلزونية، واوية- خيطية ....الخ)

وحدة القياس المستخدمة في علم الجراثيم هي الميكرون وهو جزء من ألف من المليمتر. ويتراوح طول الجراثيم المتوسطة بين ثلاثة وخمسة ميكرونات. ولشدة صغر الجراثيم فإن وجودها لم يتأكد نهائياً إلا بعد اختراع المجهر في أواخر القرن السادس عشر.

أنواع الجراثيم

الجراثيم أنواع كثيرة لا يُعرف حتى الآن عددها بالدقة الجازمة وبلغ مجموع ما عُرف منها ١،٥٠٠ نوع. و الجراثيم كائنات حية صغيرة جداً ذات خلية واحدة لا ترى بالعين المجردة.

تتكاثر الجراثيم عادة بالانقسام المباشر أي أنها تنقسم إلى جزئين. فالنواة الداخلية تنقسم إلى نواتين، ثم تتمدد الخلية وتنقسم بحيث يشمل كل قسم جزءاً من النواة، وتبدأ كل منها حياة مستقلة عن الأخرى في شكل خلية جديدة. ويحدث أحيانا خلاف ذلك، فتتوالد عن طريق التلقيح الداخلي، فتنشأ في جسم الخلية نفسه خلية صغيرة أو الخلية الابنة ثم، ينقسم الجدار المحيط بالخلية الأم، ويسمح للخلية الابنة بالخروج لتكون جنيناً، يكبر وينمو ليصبح خلية طبيعية.

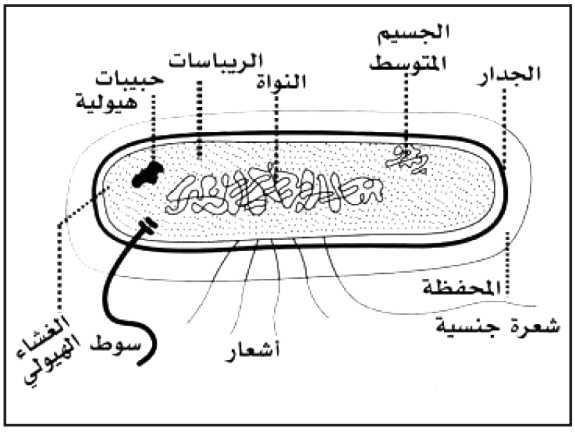

الشكل (٢) بنية الخلية الجرثومية

أين توجد الجراثيم؟

توجد الجراثيم في كل مكان من أعلى قمة على سطح الأرض إلى أغوار

المحيطـات. وفي باطن التربة وفي أجسـام الكائنـات الحية كلها، كما توجد في الماء والهواء والتراب والأطعمة ومنها:

جراثيـم الماء: يحمل الماء عددا كبيرا من الجراثيم حيث ينقلها من الهواء ويجرفها من التربة. منها جراثيم الكوليرا .

جراثيـم الهواء: تكثر جراثيـم الهواء في المدن ويحملهـا من الغبار الذي تثيره الرياح، منها جراثيم السل.

جراثيـم التربة: تكثر الجراثيم في التربة عن طريق الفضلات والمفرزات الصادرة عن الحيوان والإنسان منها جراثيم الكزاز.

جراثيم الأطعمة: تكثر في الخضـار والنباتات، وفي اللحوم، وفي الحليب والألبان منها جراثيم الحمى المالطية.

والجراثيم طفيليات مسـببة للأمراض. لكن بعض البكتريا منها قد تكون عظيمـة النفع، بل ضرورية، فهي تسـاعد على صنـع الزبد والجبن والخل، وعلى إنتاج بعض الفيتامينات، وتسـتخدم في صنع الأسـيتون، وكلها منافع ذات شـأن، ولكنها تبدو تافهة إذا قيسـت بنشـاطات الجراثيـم الموجودة في التربـة والهواء والماء. ذلك أن الجراثيم، بوصفها من عوامل الفسـاد، تكفل هي وبعض الفطريات الأخرى اسـتمرار الدورات العضوية التي بوساطتها يتوافر الكربون والنيتروجين والأملاح المعدنية للأجيال الجديدة من الكائنات الحية. ولولا نشـاط الجراثيم لتعذر على النباتات الخضراء نفسـها أن تتكاثر وتتجدد بسبب افتقارها إلى الكربون.

حياة الجراثيم

أولاً: حياة النفع المتبادل Symbiosis: وتتم هذه باشتراك طرفين في حياة واحـدة ينتـج عنها نفع متبـادل بينهما كحياة جراثيم العقـد الجذرية على جذور النباتـات البقولية، بحيث تـزود الجراثيم النبات بحاجته من الآزوت الذي كانت ثبتته في جسمها من الآزوت الجوي بينما يمدها النبات بالمجهود اللازم لها من الكربوهيدرات المخزنة في جسده.

ثانياً: حياة النفع المنفرد Metabiosis : تتم باشتراك نوعين من الجراثيم في حياة واحدة ويكون النفع لظرف واحد فحسب كحياة جراثيم التأزت (جراثيم الآزوتات وجراثيم الآزوتيت) على بيئة واحدة. فجراثيم الآزوتيت تعمل على أكسدة النشادر كي ينتج الآزوتيت فتنتفع به جراثيم الآزوتات في تحويل الآزوتيت إلى آزوتات بالإضافة إلى المجهود الناتج.

ثالثاً: حياة التضاد Antibiosis : كوجود نوعين من الجراثيم في وسط لا يتوافر النفع لأحدهما بوجود الآخر كوجود جراثيم حامض اللكتيك والجراثيم التعفنية في الأمعاء إذ إن هذه الأخيرة لا تعيش في وسط حامضي ولا يمكنها الإفادة منه بشيء.

جراثيم التربة

هي أحياء دقيقة لا ترى بالعين بل بالمكبرات تعيش في التربة تحت ظروف تناسبها من رطوبة وحرارة وهواء وغذاء وفي وسط متعادل أو قلوي أو حامضي. ويزداد عدد الجراثيم في التربة ويزداد نشاطها إذا توافرت فيها الخصوبة ففي ١ سم٣ من تربة خصبة يوجد ٦-١٠ ملايين وحدة، بينما في ١ سم٣ من تربة ضعيفة لا يزيد عدد الجراثيم فيها عن ٤٥٠ ألف وحدة.

وإن العـدد الكبيـر من الجراثيم يوجد في التربــة على عمق ينحصر مابين ٢٢-٣٠ سـم حيث تتوافر التهوية الكافية والحرارة المناسبة والرطوبة الملائمة لـذا فإن عمليــة الحرث تزيد في عدد الجراثيم في التربة بسـبب توافر العوامل الثلاثة فيها. فكلما زاد العمق عن ٣٠ سـم نقص عـدد الجراثيم في التربة، وقد وجـد العالم هوسـتن بأن جراما واحدا من تربة سـطحية يحتوي على ١,٦٨٨ مليون وحدة بكتيرية وعلى عمق ٩٠ سم من التربة نفسها وجد أن جراما واحدا يحتوي على ١٧٤ ألف وحدة وعلى عمق ١٨٠سم وجد ٤١٠ وحدة فحسب.

ونتيجة للبحث وجد أن أنسـب درجة رطوبة في التربة لنشاط الجراثيم هي ٧٠٪ وهي تتواجد على عمق ١٠ سم أما فوق ذلك فإن الجراثيم تتأثر بالجفاف. كما إن أفضل درجة حرارة تناسب نشاط الجراثيم هي ٣٠ م° في وسط متعادل علماً بأن الوسطين الحامضي والقلوي يحدان من نشاطها. ولذا فإن تسميد التربة بالسـماد العضـوي (البلدي أو الأخضر) يزيد في عـدد الجراثيم وفي نموها إذ أنهما يوفران الغذاء للجراثيم. وقد استدل على ذلك عندما قيس عدد الجراثيم في ا جرام من تربة مسمدة فكان يتراوح بين ٥٠-١٢٠ مليون وحدة.

أنواع جراثيم التربة

١- جراثيم النشدرة المحللة لليبتون تتواجد في التربة بمعدل ٧٥ مليون وحدة في ١سم٣.
٢- جراثيم النشدرة المحللة للنشادر تتواجد في التربة بمعدل ٢٥ مليون وحدة في ١سم٣.
٣- جراثيم تثبيت الآزوت تتواجد في التربة بمعدل ٢,٥ مليون وحدة في ا سم٣.
٤- جراثيم عكس التأزت تتواجد في التربة بمعدل ٠,١٦٥ مليون وحدة في ١ سم٣.
٥- جراثيم التأزت تتواجد في التربة بمعدل ٠,١٠٠ مليون وحدة في ١ سم٣.

عمل الجراثيم في التربة

للجراثيم عملان رئيسان في التربة:

١- **انحـلال المواد العضويـة غير الآزوتية :** كانحلال السـكر والنشـا والسـليليوز والبكتيـن أو الدبال بوجود الجراثيم والفطريـات بكمية كافية وهذا

يتـم بانحلال المـواد العضوية غير الآزوتية (السـكر والنشـا) إلـى موادهما الأساسية (ثانية أكسد الكربون، الماء والدبال، وإلى موادهما الثانوية : الكحول والأحماض العضوية، في الأراضي جيدة التهوية، أما في الأراضي الغدقة فيتم انحلالهما إلى غاز الميتان وهيدروجين إضافة لما ذكر.

٢- تثبيـت الآزوت الجوي: يقوم بهذه العملية نوعان من الجراثيم يتصف هذان النوعـان مـن الجراثيم بدقتهما وكثرة حركتهما، يعيشـان في بيئـة هوائية، يختلفان بحسب البيئة التي يعيشان فيها، يلائمهما الوسط المتعادل ذو الحرارة ٢٥ م° الحاوي على مادتي الكربواهيدرات والفوسفات. تعيش الجراثيم العقدية على جذور النباتات البقولية الحاوية على مادة تشجع نشاط حركتها كمادة الفوسفور مثلاً. تمتص الآزوت الجوي وتثبته في جسمها مكونة مادة البروتين في داخل عقد متراصة بجانب بعضها مشـكلة حلقات حول الجذور فتزود النبات بحاجته من الآزوت وتدخر ما تبقى لديها منه. فإذا حصدت النباتات البقولية هذه وقلبت في التربة تكسـرت هذه العقد وأفضت بما فيها من أزوت في التربة أي سمدتها بطريقة غير مباشرة.

فوائد الجراثيم

١- تسـتخدم بعـض أنواع الجراثيـم البكتربا النافعة خاصـة في المكافحة البيولوجيـة أي أنها تسـتخدم للقضـاء على بعض المخلوقـات الحية التي تفتك بمقدرات الإنسان الحيوية، وبالمقابل تعيش بعض أنواع الجراثيم معيشة تكافلية

في أمعاء الإنسان والحيوان فهي تساعد في هضم بعض المواد الدهنية وهضم السليلوز كما تساعد في بناء فيتاميني K، B في أمعائه.

٢- دور الكثافة العددية للبكتريا في الكشف عن تلوث مياه البحار إذ تقاس الحالة الصحية للمياه بالكثافة العددية لبعض أنواع الجراثيم المسببة للأمراض منها بكتيريا القولون النموذجية وبكتريا ايشيرشيا كولاى، والجراثيم الكروية السبحية، وطبقا للمقاييس المعمول بها في مصر فإن الحد الأقصى المسموح به هو ٥٠٠ وحدة من النوع الأول لكل ١٠٠ مل من ماء البحر و١٠٠ وحدة من النوعين الثاني والثالث لكل ١٠٠ مل من ماء البحر.

٣- علاج مرض التوحد: أعلن باحثون بريطانيون أنه قد يكون لبعض أنواع الجراثيم المفيدة أثر إيجابي في علاج مرض التوحد Autism الذي يصيب الأطفال. Uh]m ويقول هؤلاء إن استعمال هذا العلاج ليس المقصود منه تخفيف الاضطرابات المعدية التي تصاحب المرض فحسب، بل يقصد به كذلك تخفيف آثره النفسي، ويعتزم الباحثون أن يجروا تجارب إكلينيكية للتأكد من صحة افتراضهم.

ومرض التوحد هو :أحد صور الاضطرابات الدماغية، يصيب عادة الأطفال قبل سن الثالثة، ويستمر معهم بقية العمر، ويصيب المرضى بحالة حادة من الانطواء على الذات، ويؤثر سلبا بالأساس على قدراتهم اللغوية، وقدرات التواصل مع الآخرين، والتفاعل الاجتماعي. وينتشر هذا المرض في الذكور أكثر منه في الإناث، كما أن ظهوره غير مرتبط بأي خلفية إثنية أو عرقية أو اجتماعية، وسبب المرض غير محدد حتى الآن، وعادة ما يعاني مرضى التوحد من اضطرابات معدية منها الانتفاخ والإسهال، إذ يتزايد في أحشائهم نوع من الجراثيم الضارة يسمى «كلوستريديا»، وليس معنى ذلك أنها سبب المرض، لكن سموم هذه الجراثيم ربما تساهم في جعل حالة مرضى التوحد أسوأ. ويشير الفريق البحثي إلى أنه إذا تم تزويد الجسم بنوع من الجراثيم المفيدة، مثل لاكتوباسيلاس بلأنتارام التي تستطيع أن تخفف من أثر الكلوستريديا، لأنها تلتصق بالبطانة الداخلية للأمعاء وتقويها، وبالتالي تدعم مناعتها ضد

الاختراق. وتزايد مؤخرا الاعتقاد بأن المكملات الغذائية أو الدوائية، المحتوية على أنواع من الجراثيم المفيدة، يمكن أن يكون لها دور علاجي فعال، خاصة في حالات الاضطرابات المعدية أو المعوية. ففي السويد مثلا توصف هذه المكملات بعد العمليات الجراحية للاعتقاد بأنها ترفع كفاءة مناعة الجسم، بل إن هناك الكثير من الأبحاث الجارية الآن لمعرفة الفائدة العلاجية لهذه الجراثيم في حالات التهاب القولون وسرطان القناة الهضمية. ويقدر حجم سوق الجراثيم المفيدة، في صورة كبسولات وعصائر ومنتجات ألبان، بحوالي ٦ مليارات دولار، وهذه المنتجات موجهة لمرضى التوحد ولغيرهم.

٤- الجراثيم المغناطيسية يمكنها استهداف الأورام إذ يمكن استخدام الجراثيم التي تنتج جزيئات مغناطيسية صغيرة لغرض صنع أدوية تستقر في مناطق محددة من الجسم تأتي الجزيئات جاهزة وملفوفة في غشائها البيولوجي الذاتي، ويمكن ربط الجزيئات، من ذلك الأدوية المضادة للسرطان، بسهولة معها. ويمكن للأطباء بعدها توجيه الأدوية إلى منطقة معينة من الجسم باستخدام المغناطيس، لذلك فإن تحديد المنطقة التي تحتاج إلى الدواء، يمكن، نظريا، أن يقلل من التأثيرات الجانبية المضرة للعلاج بالمواد الكيماوية.

وتنتج الجراثيم Magnetospirillu magnetotacticum جزيئات مغناطيسية (مشهورة باسم الصدأ) أقطارها ٣٠-٥٠ نانوميتر، وهذا يعني أنها صغيرة ما فيه الكفاية للعبور خلال الإبرة التي تزرق تحت الجلد. ويلاحظ أن هذه الجراثيم تستخدم جزيئات الصدأ لتوجيه حركاتها، حيث تصطف الجزيئات في سلسلة في داخل الخلايا، سامحة للبكتريا بالتحسس بالمجال المغناطيسي الأرضي لتمييز الأعلى من الأسفل. ولكن لو أمكن استخلاص هذه الجزيئات من الخلايا بأعداد كافية، فإن بإمكانها أن تقود جزيئات الأدوية باهظة الثمن أو السامة إلى مناطق الجسم التي بحاجة إليها. فالأدوية عادة ما تنتقل خلال الجسم. ويمكن للمرضى أن يرتدوا جهازا مغناطيسيا كهربائيا للمحافظة على الدواء في مكانه. إضافة إلى استهدافه للأورام، ويمكن استخدام هذه التقنية أيضا

لمعالجة أمراض موضعية معينة منها تصلب الشرايين، ولكن يحذر من أن هذا الاقتراح لا يخلو من مخاطر محتملة لأن « استخلاص الجزيئات من داخل الخلايا وجمع كميات كافية منها يمثل المشكلة الأكبر ومن المهم أيضا التأكد من أن الجزيئات لن تتكدس، فعندما تتحرك بحرية في الدم، ربما تقودها طبيعتها المغناطيسية إلى التكدس، بدلا من البقاء في داخل خلية، وفي أسوأ الاحتمالات، يمكن أن يسبب هذا في انسداد الأوعية الدموية والتسبب في جلطة. ويمكن أيضا اختبار طرق خلق جزيئات من المغناطيس أو الحديد النقي بوساطة طرق كيماوية صرفة، بدلا من استخلاصها من الجراثيم، فهذه الجزيئات لا تمتلك أي مغناطيسية حقيقية بذاتها ولكن يمكن تحريكها بوساطة مغناطيس، مثل برادة الحديد المجهرية. وعلى أية حال فإن الفائدة الرئيسة من استخدام الجراثيم، هو قدرتها على إنتاج جزيئات بكميات كبيرة.

ومن المعوقات صعوبة تربية M. magnetotacticum كما أن إنتاج الجزيئات المغناطيسية بكميات كبيرة ليس أمراً مضموناً. ولكن التعديلات الوراثية يمكن أن تستخدم لخلق سلالة أكثر نشاطاً. فلقد حدد علم الجينات مجموعة الجينات المسئولة عن إنتاج الجزيئات، التي يمكن نقلها إلى أنواع أخرى من الجراثيم. ولو تمكن علماء البيولوجيا من تنفيذ هذا العمل، فستكون أدوية الاستهداف أمراً حقيقياً.

٥- كهرباء من السكر: يقول العلماء إن تطوير بطاريات رخيصة معمولة من الجراثيم التي تتغذى على السكر أصبح أمرا ممكنا الآن. واكتشف العلماء جرثومة جديدة في الرواسب البحرية تتمكن من تحويل السكر إلى كهرباء بكفاءة عالية أكثر من أي كائن حي معروف في السابق. ولأن السكر موجود بوفرة فإن البطارية التي تعتمد على هذه الجراثيم يمكن أن تقدم كهرباء اقتصادية في الأماكن البعيدة. وفي الوقت الذي تبدو فيه الفرص جيدة فإن الباحثين يقولون إن هناك حاجة إلى مزيد من العمل قبل أن يتم استغلالها تجاريا.

٦- دور الجراثيم في صناعة الخل لتوضيح طريقة صناعة خل التفاح لابد لنا بادئ الأمر أن نعرّف الخل . يعتبر الخل من الناحية الكيميائية محلولا مائيا

لحامـض الخليك الذي يحتـوي خلاصة المواد و الألوان التي تنشـأ من وجود جراثيم و بكتريا الخل . إن جوهر و روح الخل هو حامض الخليك الذي يعطي للخـل طعمـا حامضا و يمنحه القدرة علـى التأثير كمادة لحفـظ الطعام و مادة مضادة للالتهابات.

حامـض الخليـك (CH3COOH) عبـارة عـن كحول مخمـر، و الصيغة الأساسية لنشوء الخل:

الكحول + الأوكسجين + حامض الخليك + ماء + طاقة و حرارة.

٧- الجراثيـم و الجبن وتؤكد الدراسـات أن الجبن ربما يكون أفضل منتج من مجموعة مشتقات الألبان للبكتيريا غير الضارة أو ما يسمى (البروبايوتيك) و تناولهـا مـن خلاله وهـو ما يعتبر تحديثـاً لتقديم الجبن عبـر مبررات مفيدة للجهـاز الهضمـي و إضافته إلى أنـواع المنتجات الغذائية و خاصة مشـتقات الألبـان المحتويـة على الجراثيـم ابتغاء فوائـد تناولها على الجهـاز الهضمي مناعة الجسـم ويظل الكثيرون يسألون عن جدوى تناول الجراثيم غير الضارة التـي اتسـع نطاق الحديث عنهـا و تتوافر اليوم في عدد من منتجات مشـتقات الألبـان وتتحدث بمماس العديد من المصـادر الإنتاجية عن جدواها في تخفيف أعـراض الجهـاز الهضمي و في رفع مسـتوى المناعة في الجسـم و صدرت حولها العديد من الدراسـات الطبية المشـجعة لتناولها وتحتوي الأمعاء الغليظة في جسـم الإنسـان الطبيعي والسـليم من الأمراض على حوالي ١٠٠ تريليون مـن الجراثيم غير الضارة، لأن ثمة تقريباً ١٠ أنواع من الجراثيم الصديقة في الجسـم لكل خلية حية واحدة في جسـم الإنسـان. وتعيش الجراثيم تلك وتتكاثر لتسـاعد جهاز مناعة الجسـم على محاربة الأمراض ومنـع تكاثر الميكروبات الضارة. كما وتنتج للجسـم كمية مهمة من فيتامين «كي» وغيره. وتسـهم في منع تأثير المواد الضارة على القولون ووظائفه كي لا تظهر أعراض الإسهال أو الإمسـاك أو كثـرة الغازات، وغيرها من الفوائد. ولـذا فإن تناول أنواع من الجراثيـم غير الضارة أو ما يُسـمى بروبايوتـك Probiotic، من المعتقد اليوم أنه أمر مفيد صحياً. وبحسـب إحدى نشرات مايوكلينك فإن بكتيريا بروبايوتيك

المستخدمة في إنتاج بعض مشتقات الألبان منها لبن الزبادي وغيره تساهم في المحافظة على توازن جيد للبكتيريا النافعة في القولون، كما أنها تُسهم في تخفيف أعراض الحساسية من الحليب حينما يعاني بعضهم من ضعف الأمعاء الدقيقة عن هضم سكر اللكتوز في الحليب بشكل كامل مما يؤدي إلى نشوء حالات الإسهال وكثرة الغازات لدى الإنسان كلما تناول الحليب أو مشتقاته. كما أنها تسهل الهضم وربما تؤدي دوراً في حماية الإنسان من الإصابة بالسرطان أو ارتفاع الكولسترول. ويُعتبر الحرص على سلامة وجود الجراثيم النافعة في القولون، أحد الاهتمامات الطبية. ولذا نلحظ حرص الأطباء على عدم الإسراف في وصف المضادات الحيوية، لأن أحد أهم أسباب هذا التوجه الطبي، هو المحافظة على هذه الأنواع من بكتيريا الأمعاء. كما أن أحد أهداف حرص الأطباء على النصيحة بتناول الألياف من الخضروات والفواكه، هو أن تقتات عليها الجراثيم الموجودة في الأمعاء. ما يعني تكاثرها بشكل جيد وزيادة نموها، لأن أمعاء الإنسان لا تهضم تلك الألياف، بخلاف الجراثيم الطبيعية والمفيدة التي تستطيع ذلك.

٨- علاقة الجنين والجراثيم : يخرج الجنين إلى الدنيا حين ولادته، وهو يعلم الكثير عمّا يدور فيها ومنْ فيها وكيف يتعامل معها، وغيرها من المعلومات الغريزية المختزنة لديه هدية من أمه له حال دخوله عالم الحياة الخارجية. وما حاول الباحثون من الولايات المتحدة معرفته هو بدايات قصة تعامل الطفل الحديث الولادة مع الجراثيم الصديقة بالذات، من دون تلك الضارة المؤذية له، واستخدموا وسائل معقدة للغاية في التحليل الجيني لعينات من براز الأطفال في مراحل متعاقبة من سنة حياتهم الأولى، لكي يتم وضع تصور لدخول الجراثيم إلى أمعائهم وكيفية استيطانها بشكل سلمي ومتعاون فيها، واستيعاب جسم الطفل لهذه المخلوقات الدخيلة وترحيبه بها. ووفق ما تم نشره في عدد ٢٩ يونيو من مجلة المكتبة العامة للعلوم الحيوية، وهي واحدة من أهم الإصدارات العالمية العلمية في الولايات المتحدة، فإن الدكتورة شانا بالمر، الباحثة الرئيسة في الدراسة من جامعة ستانفورد الأميركية، تساءلت بالقول (أنا لا أعلم كيف كنّا، كبشر، سنبدو لو لم تستوطن أمعاءنا الجراثيم الصديقة microbiota. لأنها مهمة. وتساعدنا كي نستخلص الكثير، من المواد الغذائية في طعامنا، الذي نأكله. وهي مهمة لجهاز مناعة الجسم. كما أنها تحمينا من تكاثر الميكروبات microbes التي ستضر بنا.) والمعلوم أنه قبل الولادة، تكون أمعاء الجنين نقية وخالية من الجراثيم. لكن سرعان ما توجد الجراثيم في أمعاء الأطفال حديثي الولادة، والتي يكتسبونها في أثناء مرورهم بقناة الولادة، عنق الرحم والمهبل، وفي أثناء رضاعتهم من حلمة ثدي الأم، وحتى من ملامستهم لأجسام أمهاتهم أو آبائهم أو إخوتهم. وخلال بضعة أيام فقط، يتكون نظام من مجتمعات أعداد متزايدة من الجراثيم التي تتكاثر وتزداد الأعداد فيها، لتصل نسبة عددها، عند مرحلة البلوغ، أكثر من عشرة أنواع من بكتيريا صديقة في الأمعاء لكل خلية حية في جسم الإنسان كله.

٩- عمليات تدفق الطاقة: تشارك الجراثيم بدور رئيس في عمليات تدفق الطاقة في الأرض، وإتمام دورات: النيتروجين، والكربون، والفسفور، والكبريت وغيرها من دورات الحياة المرتبطة بالتربة، ففي دورة تدفق الطاقة (Energy flow). تقوم الجراثيم وغيرها من الكائنات الحية في التربة بتحليل بقايا الكائنات الحية في التربة، وتحرير ثاني أكسيد الكربون المحتبس فيها، وإطلاقه في الهواء الجوي

لتغذيــة دورة الكربــون وعمليات البناء الضوئي، وتثبيته مــرة أخرى في المركبات العضويــة الكربونية الكربوهيدراتية والدهنية والبروتينية المحملة بالطاقة الكيميائية الناتجة من تثبيت الطاقة الشمســية بوســاطة اليخضــور (Chlorophyll) والتركيب الضوئــي (Photosynthesis). أما في دورة النيتروجين فتقوم الجراثيم بدور رئيس وفعال في تشــغيل الدورة وإمدادهــا بالنيتروحين وتثبيته وتحريــره. فالجراثيم تقوم بتحليــل المكونات البروتينية الحيوانية والنباتية والبشــرية وغيرها في التربة لإنتاج الأمونيــا(Amonia NH3) وتحريرها في الجو. وتقوم جراثيم النترجة (Nitrifying bacteria) بعمليــات النترجة لإنتاج النيتريت (Nitrates NO3) في التربة. كما تقوم جراثيــم نزع النيتروجين (Denitrifying bacteria) بتحرير النيتروجين ونزعه من مركباته ليصعد في الغــلاف الجوي. وتقوم الجراثيم المثبتة للنيتروجين (Nitrogen fixing bacteria) بتثبيت النيتروجين الجوي في العقد البكتيرية (Bacterial nodes) في جذور بعض النباتات خاصة البقولية منها. وإذا غاب هذا الدور الحيوي للجراثيم في تفعيل وتشغيل دورات النيتروجين توقفت الحياة تماماً، وماتت التربة، واحتبست العناصر النيتروجينية في مركباتها ونفدت من الحياة.

لا يمكن أن نعرف أهمية الجراثيم حتى نعرف ماذا يحدث لهذه الأرض إذا مــا فقدت تلــك الكائنات أو بعضها، عندها يمكن أن نكون قد علمنا ماالســر في تواجــد الجراثيم على الأرض؟، فلو غابت الجراثيم توقفت دورات النتروجين، والكربون، والفوســفور، والكبريت وماتــت الأرض وتصحرت ومات النبات، وتوقفت عمليات تخمر الخل وإنتاج الجبن ومات الإنســان لفقد المناعة ونتيجة الإمســاك الحاد ولبدأت الكائنــات الحية بالموت واحدا تلــو الأخر حتى تختفي الحياة تماماً من على الأرض، فلا حياة من دون الجراثيم، فكما أنه لا حياة على الأرض بلا ماء ونبات، فالماء والنبات والكائنات الحية الدقيقة وضوء الشــمس والهواء الجوي هي المخلوقات التي جعل الله منها كل شيء حي على الأرض.

وخيــر مثال علــى ذلك؛ الكواكب الأخرى حيث توجد الأشــعة الشمســية، والعوامــل الفيزيائيــة والتربة ولكن لا يوجــد النبات والكائنــات الحية الدقيقة، ولذلــك غابت الحياة هناك، وحتى لــو وجدوا الماء دون النبات والكائنات الحية

الدقيقة فلا حياة هناك، فسبحان من خلق وأبدع وملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وسخر كل ذلك لخدمتنا من دون حول لنا ولا قوة.

المراجع

البكتريولوجيا الزراعية. محمد سليم. الانجلو المصرية. ٢٠٠١. القاهرة.

موسوعة المورد العربية ـ منير البعلبكي المجلد الأول ـ دار النشر: دار العلم للملايين ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢

موسوعة كتاب المعرفة ـ مجلد جسم الإنسان ـ ١٩٨٢ ـ بيروت لبنان

Alcamo IE (2001). Fundamentals of microbiology. Boston: Jones and Bartlett. ISBN 0-7637-1067-9.

Atlas RM (1995). Principles of microbiology. St. Louis: Mosby. ISBN 0-8016-7790-4.

Martinko JM، Madigan MT (2005). Brock Biology of Microorganisms (11th ed. ed.). Englewood Cliffs، N.J: Prentice Hall. ISBN 0-13-144329-1.

Holt JC، Bergey DH (1994). Bergey›s manual of determinative bacteriology (9th ed. ed.). Baltimore: Williams & Wilkins. ISBN 0-683-00603-7.

Hugenholtz P، Goebel BM، Pace NR (1998). «Impact of culture-independent studies on the emerging phylogenetic view of bacterial diversity». J Bacteriol. 180 (18): 4765–74.PMID 9733676.

Funke BR، Tortora GJ، Case CL (2004). Microbiology: an introduction (8th ed ed.). San Francisco: Benjamin Cummings. ISBN 0-8053-7614-3.

Shively، Jessup M. (2006). Complex Intracellular Structures in Prokaryotes (Microbiology Monographs). Berlin: Springer. ISBN 3-540-32524-7.

Witzany G، (2008). «Bio-Communication of Bacteria and their Evolutionary Roots in Natural Genome Editing Competences of Viruses». Open Evol J. 2: 44–54.doi:10.2174/1874404400802010044.

الأسرة في رمضان بين التدبير والتبذير

الدكتور الشيخ علاء الدين محمود زعتري
مدير الإفتاء العام والتدريس الديني، في وزارة الأوقاف

رمضان شهر بركة روحية

يتسم شهر رمضان بمضاعفة الخيرات، وحلول البركات؛ فهو بحق شهر البركة الاقتصادية للأمةالإسلامية.

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك؛ فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا، وَحَضَرَ رَمَضَانُ: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ، فِيهِ خَيْرٌ يَغْشَاكُمُ اللَّهُ فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ فِيهَا الْخَطَايَا، وَيُسْتَجَبُّ فِيهَا الدَّعْوَةُ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ وَيُبَاهِيكُمْ بِمَلَائِكَةٍ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسَكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيِّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ»[1].

وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ وَأَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامَهُ وَجَعَلَ قِيَامَهُ تَطَوُّعًا، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا كَانَ حَظُّهُ مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرُ كَمَنْ

(١) رواه المسند للشاشي، رقم الحديث (١٢٢٤)، (٣/ ١٥٠).

أَدَّى سَبْعِينَ سَنَةً، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ وَالْمُوَاسَاةِ وَيُزَادُ فِي رِزْقِ الْمُؤْمِنِ فِيهِ وَمَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ، وَمَغْفِرَةٍ لِذُنُوبِهِ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ، وَسَقَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ خَفَّفَ عَلَى مَمْلُوكِهِ أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ كُلُّنَا نَجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ، قَالَ: «يُعْطِي اللَّهُ هَذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى مَذْقَةِ لَبَنٍ، أَوْ تَمْرَةٍ، وَمَنْ أَشْبَعَ جَائِعًا كَانَ لَهُ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَسَقَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ شَهْرٌ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ، خَصْلَتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتَانِ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا، أَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ لَا غِنَى لَكُمْ عَنْهُمَا: فَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْتَعِيذُونَ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ»(٢).

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن هناك رباطاً جلياً بين التقوى والبركة يظهر في الربط بين قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة:]، وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ٩٦ ﴾ [الأعراف].

رمضان بين الأمس واليوم

لكن رغم البركة الاقتصادية في هذا الشهر الكريم؛ فإن الملاحظ أن الزيادة في البركة تتحول إلى الاستهلاك لا الادخار؛ فنحن أمة ـ للأسف الشديد ـ أصبح الاستهلاك ديدنها، حتى صدق فينا القول: (إن العرب لا يعرفون كيف يصنعون الثروة، ولكنهم يعرفون جيداً كيف يبددونها).

(١) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، مؤلف الأمالي: يحيى (المرشد بالله) بن الحسين (الموفق) بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني (المتوفى ٤٩٩ هـ)، رتبها: القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي (المتوفى: ٦١٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، (١٢٤٨)، ٣٥٤/١.

وإن من معاني الصيام أنه إمساك عن شهوة البطن، وبالمعنى الاقتصادي: تخفيض الإنفاق، أي ترشيده بمعنى أدق.

رمضان في صدر الإسلام وإلى عهد قريب شهر الصيام والقيام وقراءة القرآن، شهر عبادة لله تبارك وتعالى، وتعويد النفس البشرية على الصبر.

بَيْدَ أننا نرى، في حياتنا المعاصرة، علاقة طردية بين شهر الصوم والاستهلاك الشره.

فأصبح رمضان شهر الطعام والإسراف في الاستهلاك، شهر التخمة في البطنة، والأسقام في الأجسام، شهر البدانة وزيادة الوزن والسمنة.

وفي هذه الأزمنة يتناسى المسلمون شعيرة رمضان بالصيام وفضيلة الشهر بالتقوى، ويتحول شهر الصيام إلى شهر الطعام بامتياز؛ حيث تظهر أطباق من الأطعمة، لا تراها في سائر أشهر العام، وتعج المستوصفات والمستشفيات بحالات التخم والنزلات المعدية الحادة، بالإضافة إلى هدر الأوقات الثمينة بين التسوق والطبخ والنوم.

ومن المؤسف التعريف برمضان بهذه الطريقة، ولكن عسى الحديث عن المرض يرشد إلى الدواء.

والمرء يدهش من هذا النهم الاستهلاكي الذي يستشري لدى الناس عامة في هذا الشهر دون مسوّغ منطقي.

فالجميع يركض نحو دائرة الاستهلاك المفرط، والاستعداد للاستهلاك في رمضان يبدأ مبكراً مصحوباً بآلة رهيبة من الدعاية والإعلانات والمهرجانات التسويقية التي تحاصر الأسرة في كل مكان وزمان ومن خلال أكثر من وسيلة.

فالزوجة تضغط باتجاه شراء المزيد، والأولاد يُلحون في مطالبهم الاستهلاكية.

والمرء نفسه لديه حالة شراهة لشراء أي شيء قابل للاستهلاك وبكميات أكثر من اللازم.

ومن الأسف أن اعتاد بعض الناس على بعض العادات السيئة الدخيلة على شهر رمضان والتي تتمثل في طريقة الإنفاق الاستهلاكي وهي ليست من الإسلام.

ولعل الشائع أن المرأة أكثر إسرافاً من الرجل سواء في ملبسها أو إنفاقها،

لكن هناك من الرجال مَنْ هم أكثر إسرافاً في أموالهم وسلوكهم ومقتنياتهم.

فالأمر نسبي ويرتبط بحجم ما يتوافر لدى الفرد من مغريات نحو الإسراف.

ويبقى السؤال المهم: أيهما أكثر إسرافاً الرجل أم المرأة أم الاثنان معاً؟!.

والحقيقة أن كلاً من الرجل والمرأة مسؤول، وإن كان الإسراف والتبذير أكثر في المجتمع النسوي نسبياً.

ومن ثم فإن الزوجة التي تعد وتطبخ، والزوج الذي يجلب وينفق كلاهما متهم في الشراهة الاستهلاكية التي تنتاب مجتمعنا في رمضان وغير رمضان.

وترى كثيراً من ربات البيوت (وكذا بعض الجمعيات الخيرية) يقضين فترة ما بعد الظهر إلى أذان المغرب في المطبخ؛ لجهة إعداد (سفرة، مائدة)؛ عنوانها: الإسراف، سواء على الصحة، أو على المال، أو على الزمن والوقت.

وبعد تناول (الكم الهائل) وغير الموزون من الطعام، على معدة خالية خاملة لفترة طويلة من النهار؛ حيث إن المعدة لن تقوى على هضمها، ويشعر الصائم بعد الطعام الكثيف بالغثيان (الدوخة) والإعياء (التعب) والكسل خلال فترة الليل؛ مما لا يعينه على أداء صلاة العشاء وصلاة التراويح ولا على قراءة القرآن، فيخلد للنوم، ويضيع عليه من الخيرات والبركات ما لا يحصى.

لذا، يمكن القول، بصفة عامة، إن الإسراف في هذا الشهر (رمضان) وفي غيره، سمة من سمات منطقتنا العربية.

فعندما يأتي شهر رمضان نرى أن أغلبية المسلمين يرصدون ميزانية في الأشهر العادية، وتبدأ بمضاعفة استهلاكها.ويكون النهار صوماً وكسلاً والليل طعاماً واستهلاكاً غير عادي.

ونسي هؤلاء أو تناسوا أن اختصار وجبات الطعام اليومية من ثلاث وجبات إلى وجبتين اثنتين فرصة طيبة لخفض مستوى الاستهلاك وهي فرصة مواتية لاقتصاداتنا خصوصاً ونحن أمة مستهلكة أشارت كل الإحصاءات إلى أن أقطارنا كافة تستهلك أكثر من إنتاجها وتستورد أكثر من تصديرها، وما هذا الاستهلاك الزائد دائماً والاستيراد الزائد غالباً إلا عاملان اقتصاديان خطيران تشقى بويلاتهما الموازنات العامة وموازين المدفوعات.

الاستهلاك المفرط مهدد للاقتصاد

إن الاستهلاك المفرط لدى الأسر في رمضان يهدد حياتها الاقتصادية.وإن مشكلة الإسراف بالغذاء لا يتضرر منها المشتري فحسب، إنما يتضرر منها المجتمع أيضاً، لأن المستهلك تسبب بزيادة الطلب على السلع؛ وبذلك تسبب في ارتفاعها ونفادها من السوق أيضاً، وهذا يؤثر على ميزان العرض ويؤثر تأثيراً كبيراً على ارتفاع الأسعار.

وغير خافٍ، أن الإنفاق البذخي في رمضان أمر لا يمكن أن يتسق مع وضعية مجتمعاتنا الإسلامية التي في أغلبها مجتمعات نامية تتطلب المحافظة على كل جهد وكل إمكانية من الهدر وما نصنعه في رمضان هو بكل تأكيد هدر لإمكانات مادية وهدر لقيم سامية وهدر لسلوك منزلة القناعة.

ومن المعلوم أن الاستهلاك المتزايد باستمرار معناه المزيد من الاعتماد على الخارج؛ ذلك لأننا لم نصل بَعْدُ إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي أو مستوى معقول لتوفير احتياجاتنا الاستهلاكية اعتماداً على مواردنا وجهودنا الذاتية، وهذا له بُعْدٌ أخطر يتمثل في وجود حالة تبعية غذائية للآخر الذي يمتلك هذه الموارد ويستطيع أن يتحكم في نوعيتها وجودتها ووقت إرسالها إلينا.

ومن ثم، كان للاستهلاك المفرط (الزائد) والشراء من غير حاجة، أبعاد خطيرة كثيرة تهدد الحياة الاقتصادية وتهدد الأمن الاقتصادي الوطني.

إن الإسراف (الزيادة في المباح) والتبذير (الإنفاق في الحرام) في الاستهلاك يُعَدُّ سوء استخدام للموارد الاقتصادية والسلع التي أنعم الله بها على العباد لينتفعوا بها،هذا الإفراط عمل يذمه الإسلام ذمّاً كبيراً، حيث وصف الله المسرفين والمبذرين بأنهم إخوان الشياطين، قال الله تعالى: ﴿... وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء].لما للإسراف والتبذير من آثار سيئة لا تقتصر على صاحبها الذي مارس الإسراف بل تمتد لتشمل المجتمع والعالم.

فهل يكون شهر رمضان فرصة ومجالاً لامتلاك إرادة التصدي لحالة الاستهلاك الشرهة التي تنتابنا في هذا الشهر الكريم؟!!.

إنّ صفة استهلاك المسلم هي الكفاية لا التبذير.

وإن منفعته وإشباعه يتحقق ليس فقط بالإشباع المادي بل من خلال الإشباع الروحي بأداء الواجب نحو المسلمين من مال الله الذي رزقه إياه.

وإن منفعته تتحقق حتى في قيامه بواجبه نحو المسلمين وقبل ذلك أهله وزوجته وولده.

ولذا، يسعى المسلم إلى مرضاة الله تعالى، فيشكر الله على نعمه ويحمده ليحقق منفعة بسد حاجته، وبلوغ متعته والكفاية عن الحرام، وتحقيق مرضاة الله ونيل ثوابه عز وجل.

إن شهر الصيام فرصة دورية للتعرف على قائمة النفقات الواجبة بالمفهوم الاقتصادي، وعلى قائمة الاستبعاد (الإنفاقي) ثم فرصة لترتيب سلم الأولويات، ثم فرصة كذلك للتعرف على مستوى الفائض الممكن.

وإن شهر رمضان فرصة لتحقيق ترشيد أفضل، ولتوسيع وعاء الفائض الممكن، ولكن شريطة أن يرتبط بالقاعدة القرآنية الإرشادية المعروفة: ﴿ ... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]، هذه القاعدة، لاشك هي ميدان الترشيد على المستوى الفردي والمستوى العام.

يؤكد الباحثون على حقيقة مهمة تنص على أن فوضى الاستهلاك تبرز بوضوح، حينما تبدأ الزوجة بمزيد من الإنفاق على السلع والمواد الغذائية التي تبتلع فعلاً الدخل الشهري حتى آخر قرش فيه.

وتنتقل عدوى التبذير إلى الأطفال فينمو معهم انعدام الحس بقيمة الأشياء فلا يحافظون بالتالي على ألعابهم أو كتبهم أو أدواتهم.

وفي ظل ذلك، لا يبقى قضية وقتية حالية، بل مسألة تمتد إلى المستقبل، ولا يعود التبذير والترف مقتصراً على الأسرة، بل والوطن كذلك.

يقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء].

التحول في رمضان من الروحانية إلى المادية

يجري تحويل شهر رمضان، عاماً بعد عام إلى مناسبة للترويج الكثيف والحاد لمختلف السلع، وتسهم في ذلك بقوة مختلف وسائل الإعلام وفنون الدعاية ووكالات الإعلانات.

وهكذا، يتزايد إخضاع المشاعر الدينية للاستغلال كوسيلة من وسائل توسيع السوق، بل وأحياناً لترويج أكثر السلع بُعداً عن الدِّين.

ومن ضمن أسباب ارتفاع الأسعار في شهر رمضان ما تشهده الأسواق من حملة (شراء عشوائي) إثر إقبال الأسر على شراء كثير من المواد الاستهلاكية والمنتجات غير الضرورية، وذلك بسبب قلة الوعي الشرائي وعدم التخطيط المالي المسبق قبل التسوق، وعدم موازنة احتياجات الأسرة والدخل.

أسباب تزايد الاستهلاك:

١ـ ثورة الدعاية والإعلان:

فقد برع المنتجون بالمشاركة مع أصحاب شركات الدعاية والإعلان في ترويج السلع والخدمات، وتزيينها للناس سواء كانوا محتاجين إليها أم لا، وذلك عن طريق الدعايات والإعلانات التجارية التي تعرض أمام الناس في كل زاوية وركن، في الطريق، وفي الصحف والمجلات، وفي المحطات الإذاعية والمرئية، وعلى شاشات الفضائيات.

مما يدفع الناس إلى الاستهلاك، ولو لم يكونوا بحاجة ملحَّة إلى النوع الذي يُروَّج له، ولكن كثرة العرض والدعاية ترسِّخ في ذهن المستهلك أهمية السلعة أو الخدمة، فيُقدِم على شرائها.

٢ـ اعتماد بعض المنتجين على الإغراء:

حيث يزداد أمر الاستهلاك سوءاً عندما يدخل القمار في عمليات الاستهلاك، من خلال السحب على المنتجات المشتراة، من خلال الجوائز اليومية في رمضان، ثم الجوائز الأسبوعية، ثم الجائزة الكبرى في نهاية الشهر، فبدل أن يكون شهر طاعة وعبادة، يصبح شهر مقامرة وكسب خبيث.

ويظهر الحرام عندما يكون الدافع لشراء السلعة أو الخدمة هو الحصول

على قسيمة الاشتراك في السحب أكثر من إرادة الاستفادة من السلعة المباعة أو الخدمة المتاحة.

٣ـ التقليد والتبعية:

لا يُنكر أثر ظاهرة تقليد المغلوب للغالب وانبهاره به، وهي أمر غريزي ذكره علماء الاجتماع وأشار ابن خلدون في مقدمته إلى هذا الأمر، إذ يقول:(إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك: أن النفس أبداً تعتقد الكمال في مَن غلبها وانقادت إليه)(١).

وعليه، فإننا نؤكد على أن مفتاح حل الأزمات الحقيقي إنما يكمن في التربية الاستهلاكية.

إن رمضان هو محاولة لصياغة نمط استهلاكي رشيد وعملية تدريب مكثف تستغرق شهراً واحداً تفهم الإنسان أن بإمكانه أن يعيش بإلغاء الاستهلاك استهلاك بعض المفردات في حياته اليومية ولساعات طويلة كل يوم. إنه محاولة تربوية لكسر: (النهم الاستهلاكي الذي أجمع علماء النفس المعاصرين أنه حالة مرضية، وأن مجال علاجه في علم النفس وليس في علم الاقتصاد).

ولحسن التدبير لا بد من التعرف على:

وسائل ترشيد الاستهلاك:

- الالتزام بضوابط الاستهلاك وأولوياته.
- التعرف على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- اتباع المنهج الغذائي الصحي.

١) الالتزام بضوابط الاستهلاك وأولوياته:

لقد وضع الإسلام عدداً من المبادئ والضوابط الشرعية في مجال الاستهلاك، تكفي لتحقيق الوقاية والمناعة من كثير من الأزمات والمجاعات التي تتعرض لها كثير من المجتمعات الإسلامية، ومن هذه المبادئ:

١ـ إن نعم الله تعالى التي أنعم بها على البشر لا تخص طائفة دون أخرى، وحتى لو وجدت بيد فئة معينة فإن للآخرين حقا فيها، فالمال مال الله، والإنسان مستخلف فيه، ومن هنا فليس للمسلم أن يفرط أو يسرف ويبذر في استهلاكه.

(١) مقدمة ابن خلدون، ١٤٧/١.

٢- إن الاستهلاك عبادة وطاعة من الطاعات، فكما هي أوامر العبادات والمعاملات كذلك أمر الاستهلاك والإنفاق، فينبغي التقيد فيها بحدود ما أمر الله دون إسراف في الحلال، ودون تبذير في الحرام، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ [المائدة]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ ﴾ [النحل].

٣- الاستهلاك أمر طيب ومندوب إليه مادام في حدود الشرع، لا يؤدي إلى ضرر بالنفس أو بالآخرين، ونعى القرآن الكريم على أولئك الذين يريدون تحريم ما أحل الله لهم من الطيبات، والزينة من الحياة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾[الأعراف].

٤- الإسلام يحث على الاعتدال والتوسط في الإنفاق والاستهلاك، و ينهى عن الإسراف، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ [الأعراف]، ويحرم التبذير، قال عز وجل: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ ﴾ [الإسراء]، وقد بين القرآن منهج عباد الرحمن بأنهم أصحاب توسط، بلا تفريط ولا إفراط، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ [الفرقان]، ومنهج القوام والاعتدال يكفل للمجتمعات الإسلامية التخلص من كثير من المشكلات والأزمات التي ترهق كاهلها، ولا يمكن الالتزام بهذا المنهج إلا بوجود القناعة والحوافز الداخلية، من خلال الرقابة الذاتية الإيمانية.

٥- للاستهلاك في الإسلام أولويات لا بد من مراعاتها بحيث يبدأ المسلم بسد حاجات نفسه أولا، ثم أهله ثم أقربائه ثم المحتاجين، فقد أن رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا

وَهَكَذَا» يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ[١].

٦- ينبغي للمستهلك المسلم أن يقوم بتلبية ضرورياته أولا، ثم حاجياته، ثم تحسينياته، فالضروري: ما تتوقف عليه حياة الناس كالطعام والشراب، والحاجي: ما يرفع الحرج ويدفع المشقة عن الناس، والتحسيني: ما يؤدي إلى رغد العيش ومتعة الحياة دون سرف أو ترف أو معصية.

٧- يتحدد مستوى الاستهلاك والإنفاق على النفس والعيال والمحتاجين بالقدرة المالية للشخص فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

٨- لا يجوز أن يشتمل الاستهلاك على محرم، سواء كان ضرورياً أو حاجياً أو تحسينياً.

٢) التعرف على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

في موضوع الاستهلاك نقرأ عدداً من الأحاديث التي تصف حياته صلى الله عليه وآله وسلم بكافة تفاصيلها، ومن يقرأها ويحاول التمثل والاقتداء، فسيجد نفسه بعيداً عن شره الاستهلاك، فمن تلك الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ طَعَام ثَلاثَةَ أَيَّام حَتَّى قُبِضَ»[٢].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعاً حَتَّى قُبِضَ»[٣].

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَنَس وَعِنْدَهُ خَبَّازٌ لَهُ، فَقَالَ: مَا أَكَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم خُبْزًا مُرَقَّقاً، وَلا شَاةً مَسْمُوطَةً[٤] حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ»[٥].

(١) رواه مسلم، رقم الحديث (١٦٦٣)، والنسائي، رقم الحديث (٢٤٩٩).
(٢) رواه البخاري، رقم الحديث (٤٩٥٥)، ومسلم، رقم الحديث (٥٢٨٦)، والترمذي، رقم الحديث (٢٢٨١)، وابن ماجه، رقم الحديث (٣٣٣٤).
(٣) رواه البخاري، رقم الحديث (٤٩٩٦)، ومسلم، رقم الحديث (٥٢٧٤)، والترمذي، رقم الحديث (٢٢٨٠)، والنسائي، رقم الحديث (٤٣٥٦)، وابن ماجه، رقم الحديث (٣١٥٠)، والإمام أحمد، رقم الحديث (٢٣٠٢٢)، والدارمي، رقم الحديث (١٨٧٧).
(٤) الشاة المسموطة: المشوية.
(٥) رواه البخاري، رقم الحديث (٤٩٦٦)، والترمذي، رقم الحديث (١٧١٠)، وابن ماجه، رقم الحديث (٣٢٨٣)، والإمام أحمد، رقم الحديث (١١٨٤٨).

وعَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ يَخْطُبُ، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ رضي الله عنه مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنْ الدُّنْيَا، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ دَقَلاً(١) يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ»(٢).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِياً(٣)، وَأَهْلُهُ لا يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ»(٤).

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ(٥)، وَقَرَظٍ(٦) فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ(٧) مُعَلَّقٌ فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إِلا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، قَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ، وَلَهُمْ الدُّنْيَا»، قُلْتُ: بَلَى(٨).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟»، قَالا: الْجُوعُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا» فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ ... فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ(٩) فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ

(١) الدقل: التمر الرديء اليابس.
(٢) رواه مسلم، رقم الحديث (٥٢٨٩)، والإمام أحمد (٣٣٤).
(٣) طاوياً: أي جائعاً.
(٤) رواه الترمذي، رقم الحديث (٢٢٨٣) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وابن ماجه، رقم الحديث (٣٣٣٨)، والإمام أحمد (٢١٨٩).
(٥) مكيال لا يتجاوز ثلاثة كيلو غرامات.
(٦) ورق شجر يُدبغ به.
(٧) الإهاب: الجلد قبل الدبغ.
(٨) رواه ابن ماجه، رقم الحديث (٤١٤٣).
(٩) العذق: الغصن من التمر.

الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْ الشَّاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»(١).

وعَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً، قُلْتُ: لا، يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا»، وَقَالَ ثَلاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا: «فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ» (٢).

والأحاديث السابقة لا تشير إلى فضل الفقر أو الفاقة الممقوتة، بل تشير إلى الحالة التي كان يعيشها رسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وليس المراد أن نعيش في هذا الزمان كما كان يعيش، بل على الأقل أن نتذكر مثل تلك الأحوال، فنشكر الله عز وجل على نعمه، وأن لا نسرف في الاستهلاك، وأن نكون على قدر من الزهد في حقيقته، وهو الاعتدال في الإنفاق.

٣) اتباع المنهج الغذائي الصحي:

ولعل أفضل ما يمكن قوله في هذا الصدد: المحافظة على الصحة، كي لا يصل حال الإنسان إلى مرض، وذلك بالامتناع عن أسبابه، ومراقبة طريقه، ألا وهو الجهاز الهضمي، وبالتحديد: المعدة.

جاء في شعب الإيمان: اجتمع رجال من أهل الطب عند ملك من الملوك فسألهم ما رأس دواء المعدة؟، فقال كل رجل منهم قولاً، وفيهم رجل ساكت، فلما فرغوا قال، ما تقول أنت؟، قال: ذكروا أشياء، وكلها تنفع بعض النفع،

(١) رواه مسلم، رقم الحديث (٣٧٩٩)، والترمذي، رقم الحديث (٢٢٩٢)، وابن ماجه، رقم الحديث (٣١٧١).

(٢) رواه الترمذي، رقم الحديث (٢٢٧٠)، وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، ورواه الإمام أحمد، رقم الحديث (٢١١٦٦).

ولكن ملاك ذلك ثلاثة أشياء: لا تأكل طعاماً أبداً إلا وأنت تشتهيه، ولا تأكل لحماً يطبخ لك حتى ينعم ـ يكتمل ـ إنضاجه، ولا تبتلع لقمة أبداً حتى تمضغها مضغاً شديداً لا يكون على المعدة فيها مؤونة[1].

ومن كلام بعض الأطباء: (المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء)[2].

فالمحافظة على الصحة واجب شرعي، ومطلب ديني، وينبغي التنبه إلى ضرورة اجتناب الأمراض الناجمة عن الاستهلاك المفرط، وبخاصة تلك السلع والمنتجات المحرمة والبضائع التي ثبت ضررها على الصحة.

(١) شعب الإيمان، البيهقي، رقم (٥٧٩٣ مكرر)، ٦٥/٥.

(٢) ذكره علي بن سلطان محمد الهروي القاري، في المصنوع، رقم (٣٠٦)، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ١٧٢/١.

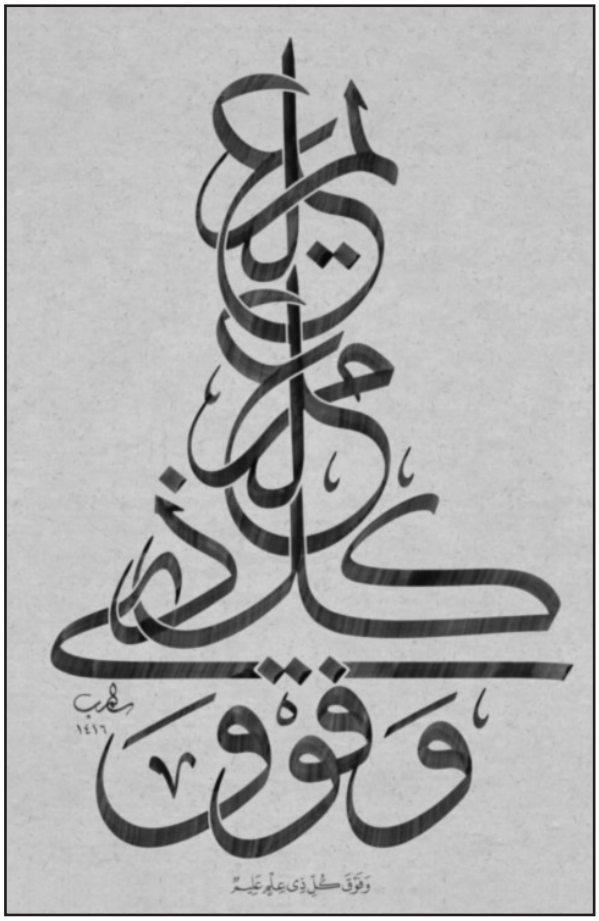
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

عقود البنية الأساسية (BOT) وآثارها الإيجابية والسلبية على الاستثمار في سورية

القاضي المستشار الدكتور محمد وليد منصور

المقدمة

إن مفهوم عقد البناء والتشغيل والتحويل أو ما يعرف بالإنكليزية Build Operate and Transfer/**BOT** مفهوم جديد ظهر في أوائل الثمانينيات.

لقد ظهرت طائفة من العقود التمويلية الحديثة مع انتشار ظاهرة العولمة الاقتصادية في عدد كبير من البلاد النامية والمصنعة حديثاً، وهي تشترط على المقاولين وفقاً لهذه الطريقة تأمين تمويل توظيفاتهم من مصادر خاصة أو من بنوك ومصارف غير تلك المتخصصة بإقراض الدولة، بما يمكن الدولة من تنفيذ مشاريع ملحة وضرورية، لا تتوافر لها اعتمادات ملحوظة في موازنتها العامة مباشرة، بحيث يتم تشغيل المنشآت العامة المنجزة بوساطة القطاع الخاص بالسرعة المطلوبة، كما تجري صيانتها على عاتقه، مما يرفع العبء الإداري والمالي عن الدولة لفترة معينة، تستلم بعدها منشآت عاملة ومنتجة.

الواقع أن عقود الـ BOT ليست من العقود التي اعتاد عليها القانون السوري والقانون اللبناني والقانون الفرنسي أو سائر القوانين التي تستمد من القانون اللاتيني أطرها الرئيسة، أو القوانين التي تعتمد نظام القضائيين العدلي والإداري، وإن هذه العقود أوجدها القانون الأنكلوساكسوني الذي لا يعترف بوجود عقود إدارية مميزة من العقود العادية.

ولمـا كانت التنمية الاقتصادية تمثل الهدف الأساسـي لـدول العالم أجمع، وخاصة الدول النامية وتمثل الدراسـات الخاصة بها محور اهتمام هذه الدول، لذلك نجد أن معظم الدراسات تتجه لاستبعاد الاعتماد بصفة كاملة على ميزانية الدولة والمساعدات والمنح الخارجية، والتي تؤدي لتراكم الديون مما يعيق أية محاولـة حقيقية للتقدم الاسـتراتيجي على الصعيد الاقتصادي، وسـط ظروف وشروط صعبة تفرضها الدول المعترضة.

ونظـراً لأهمية الدور الذي تلعبه هذه العقود في مشـروعات الدولة أصبح من الضروري أن تتواكب النظم القانونية القضائية مع هذا التطور الاقتصادي، وهـذا التغييـر الذي طرأ على السـاحة الاقتصادية، فهذه النظـم أصبحت غير كافية لمواكبة التنمية الاقتصادية، ما دفع إلى التوجه نحو الوسائل البديلة لحسم المنازعات الاقتصادية ومنها التحكيم باعتباره أكثر الوسائل فاعلية للإسهام في إنهاء المنازعات لهذه العقود بطريقة سريعة وسليمة ومنضبطة.

التعريف بعقود البوت وطبيعتها القانونية

مشـاريع الـ BOT شكل من أشكال تمويل المشروعات، تمنح بموجبه دولة ما مسـتثمرا أو مجموعة من المستثمرين امتيازاً لتمويل وتنفيذ مشروع معين، ثم تشـغيله واسـتغلاله تجارياً لمدة زمنية، يصار عند نهايتها إلى رد المشروع إلى الدولة.

الواقـع أن عقود الـ BOT تعتبر من طرق الإدارة غير المباشـرة للمرافق العامـة الصناعية والتجارية تتشـابه وتختلـف في الكثير مـن النقاط مع عقود أخرى تعرفها الإدارة.

إن الغايـة من اعتماد أسـلوب الـ BOT الإفادة من مـوارد القطاع الخاص لأغراض إنشاء البنى التحتية دون الحاجة إلى تحميل موازنة الدولة هذه الأعباء المالية أو دون حاجة إلى الدين العام.

ويمكن تعريفه: بأنه نمط من أنماط التعاقد الحديثة أو مجموعة من الأحكام التعاقديـة، التـي تلجأ إليها الإدارة، من أجل تنفيذ أشـغال عامة، وإدارة مرافق

عامــة، وتحويلهــا من قبــل متمولي القطاع الخــاص الذين يشــكلون فيما بينهم اتحاداً مالياً لإنشــائها وتشغيلها واستثمارها لمدة زمنية معينة، مقابل استثمارها والانتفــاع منها خلال تلك الفترة، وليس بســعر يحدد في العقــد، ومن ثم إعادة كامل ملكيتها إلى الإدارة المتعاقدة، بعد انتهائها.

وهــو أقرب ما يكــون إلى امتياز «الأشــغال العامة» بصيغــة حديثة ذات الارتباط الوثيق بامتياز المرفق العام، الذي عرفه العلامة «أندريه دي لوبادير» بأنه: «شــكل من أشكال تنفيذ الأشغال العامة، تقوم بموجبه الإدارة بإلقاء عبء التنفيذ على شــخص ما (فرد أو شــركة)، ليس مقابل سعر يحدد في العقد وإنما لقاء استخدام المنشأ العام والانتفاع به.

ويعرفه بعضهم بأنه طريقة تمويل مشروع تعطي الحكومة بموجبه امتيازاً لفترة زمنية محددة لشــركة خاصة تضم مجموعــة مقاولين وموظفين من أجل إنجاز وتطوير واستثمار مشروع عام من البنية التحتية حيث تتولى هذه الشركة على نفقتها بناء وإنجاز الأشغال واستثمار المشروع طوال فترة العقد، فتسترجع بطريق الاســتثمار كلفة المشــروع والأرباح المرتقبة من العملية ثم تنقل ملكية المشروع إلى الحكومة في نهاية العقد.

ويختلــف هــذا النظام عن نظــام BOT الــذي يعني تملك القطــاع الخاص للمشروع الحكومي تملكاً كاملاً مقابل دفع القيمة، فهو يعني الخصخصة الكاملة.

ممــا تقدم نجد أن عقــود الـ BOT تحقق فوائد للدولــة تتصف بالخصائص والمميزات الآتية:

١- تمكن هذه العقود الدولة من إنشاء مشروع حيوي دون إجراء عملية اقتراض أو ضمان أو ديون أو ضرائب إضافية من أجل زيادة العائدات، لأن التمويل المباشر من الميزانية العامة لن يكون لازماً حيث إن مصادر القطاع الخاص سوف تسخر لإنشــاء وتطوير البنية الأساســية، بشرط أن يسمح له باســتغلال المشروع لفترة زمنية كافية لاسترداد ما أنفقه بالإضافة إلى ربحية مناسبة لما تحمله من مخاطر.

٢- تســتفيد الحكومة عن طريــق عقود البوت من خبــرات القطاع الخاص في إدارة وتشــغيل هذه المشــاريع، حيث تبين أن القطاع الخــاص أكثر حرصاً

وكفاءة في إدارة المشروعات الكبرى، وإن سرعة التنفيذ والاقتصاد في التكلفة أمور يحرص عليها أكثر من غيره.

٣- إن أهم ما يقوم به المستثمر في تعاقده مع الدولة ضمان مخاطر الـ BOT المالية من كلفة إنجاز المشروع، ومخاطر الدفع والتضخم النقدي فضلاً عن المخاطر السياسية.

لذلك يضطر لإنجاز المشروع بدقة وبأقصى سرعة ممكنة، لكي يتسنى استرداد التكاليف وتحقيق الأرباح المرجوة. وتبقى للحكومة السيطرة الاستراتيجية على تلك المشاريع التي ستعاد إليها في نهاية المطاف.

إن أموال القطاع الخاص المستخدمة في مشاريع الـ BOT لا تدخل في أرقام الموازنة العامة للدولة (حساب النفقات) وبالتالي فإنها تخفف من مقدار عجزها، وهي تشكل مصادر إضافية مساعدة، لتمويل وتطوير مشاريع أساسية، ضمن سياسة الدولة الإنمائية بمشاركة القطاع الخاص الذي يزداد تدخله في مشاريع الدولة المختلفة بشكل مطرد.

إن تنفيذ المشاريع بطريقة الـ BOT يشكل حافزاً قوياً لجذب الاستثمارات الخاصة لمشاركة الدولة في تلك المشاريع، لما يتضمنه من ضمانات الربح للممولين الذين يعتمدون في تقديراتهم على دراسات وتصاميم دقيقة في إنجازها وتشغيلها بالاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص.

إن تشغيل المرافق العامة في ظل امتياز الـ BOT يسير على أكمل وجه، نظراً لما يتمتع به القطاع الخاص، وخاصة على مستوى المؤسسات والمنظمات الدولية من الخبرة والدقة في إنجاز المشاريع وإدارتها، بعد إعداد الدراسات القانونية والمالية والإدارية والتقنية اللازمة، بما ينعكس إيجاباً على الوضع الاقتصادي والمالي للبلد المضيف، ويساهم في تطوير عمل المؤسسات وتشجيع الاستثمارات، وتوسيع أسواق المال والتسليفات النقدية لتمويل أكبر عدد ممكن من المشاريع.

إن التلزيم بطريقة الـ BOT يساهم في تطوير إمكانيات البلد الاقتصادية، وتدريب العمال المحليين على أحدث التقنيات المستخدمة، ويساهم في إدخال التكنولوجيا الحديثة في شتى الميادين الاقتصادية والإنتاجية، وفي تطوير

أسواق رأس المال الوطنية، ويساهم أيضاً في الحد من وقوع الهدر بأوجهه المختلفة، بحيث إن القطاع الخاص يقوم بتصميم وتخطيط عملية تأمين المواد اللازمة والتجهيزات الضرورية للتنفيذ والتشغيل، بما يملكه من خبرة عملية وفنية، بأدنى كلفة ممكنة تحقيقاً للربح وتوفيراً للإمكانيات.

إن مشاريع الـ BOT الحديثة، المطبقة في غالبية الدول النامية، تتم من خلال إجراء استدراجات عروض دولية بالغة التعقيد، لاختيار المتعهدين من أجل تنفيذ تلك المشاريع خلال فترة زمنية معينة، بعد عرض التصاميم الأولية والشروط الخاصة بإجراءات التنفيذ عليهم.

إن هذا النمط الجديد في تمويل وإنجاز المشاريع والمنشآت العامة، يتميز أيضاً عن أساليب التلزيم التقليدية الأخرى، فهو يختلف عن عقد المخاصصة أو المزارعة الذي يتولى بموجبه أحد الأفراد، بالاتفاق مع شخص عام موجود أصلاً، وتشغيله على مسؤوليته الخاصة وليس على حسابه لقاء جزء من الإيرادات أو الأرباح الحاصلة بفضل هذا الاستخدام، يحدد عادة بنسبة مئوية معينة.

السلبيات التي يمكن أن تنشأ عن عقود الـ BOT

من خلال استعراض وتقويم التجارب الميدانية لبعض الدول التي أخذت بهذا النظام نجد أنه شكل عوامل سلبية على الدولة المضيفة لأسباب عديدة أبرزها:

١- لجوء المستثمر سواء أكان أجنبياً أم محلياً إلى السوق المحلية للحصول على التمويل اللازم للمشروع، مما يؤدي بالمحصلة إلى زيادة الطلب على العملات الأجنبية وبالتالي انخفاض العملة الوطنية.

٢- إن تحويل المستثمر الأجنبي للأرباح الناتجة عن المشروع إلى الخارج دون أي قيود يؤدي إلى اختلال ميزان المدفوعات والتأثير على مقدار السيولة في السوق.

٣- الإفراط في منح الملتزم المزايا المرتبطة بالعقد ومن ذلك التزام الدولة بشراء الخدمة وضمان الحكومة بسداد حد أدنى مقابل هذه الخدمة وهي عادة ما تكون مبالغ كبيرة في البنوك الأجنبية تخرج عن رقابة البنوك المضيفة.

٤- ارتباط عقود BOT بالاحتكار حتى تضمن سيطرتها على السوق وضمان عدم منافستها حتى تستطيع أن تسترد ما أنفقته من أموال.
٥- ارتفاع تكلفة المشروع على المدى لطويل خاصة إذا تعلق الأمر بشراء الدولة للمنتج.
٦- عدم التزام الشركات بالمواصفات المعيارية والفنية عند تشييد المرفق.

عدم دقة القول بأن عقود الـ BOT تتيح للدولة إقامة المشروعات الكبرى دون أن تكلف موازنتها العامة شيئاً، وذلك انطلاقاً من الاعتبارات الآتية:

١- إن الدول النامية وبهدف تشجيع الاستثمار تقدم إعفاءات ضريبية طويلة المدة للمشروعات الاستثمارية مما يؤدي إلى حرمان الخزانة العامة من موارد كبيرة.
٢- في بعض مشتقات عقود الـ BOT لا تقوم شركة المشروع بإنشاء المرفق بل ينحصر دورها في تطوير وتحديث مرافق عامة.
٣- الالتزام بشراء المنتج أو الخدمة من شركة المشروع.
٤- منح الشركات الاستثمارية مزايا إضافية قد تفوق في قيمتها إجمالي تكلفة تمويل المشروع.
٥- إمكانية أن تفضي عقود الـ BOT إلى تعاظم النفوذ الأجنبي وترتيب أوضاع سياسية واقتصادية في غير مصلحة الدولة.
٦- رغبة الشركات في إفلات عقود الـ BOT من نطاق الاختصاصين التشريعي والقضائي للدولة المتعاقدة. غالباً ما تسعى الشركات الأجنبية إلى عدم خضوع المنازعات عن هذه العقود للقضاء الوطني وذلك عدم حكم العقد بموجب القانون الوطني.

آثار ما تقدم على الاستثمار في الجمهورية العربية السورية

والآن وبعد أن استعرضنا المزايا والسلبيات لعقود الـ BOT يطرح السؤال الآتي:

هل يمكن اعتماد هذه العقود في سورية كوسيلة قانونية لإنجاز مشاريع البنية الأساسية وما هو أثر ذلك على الاستثمار فيها؟

بداية لابد من توضيح أن سوريا عرفت هذه التجربة لكن ضمن نطاق ضيق في عقود تقاسم الإنتاج في صناعة النفط والغاز كعقد الفرات ودير الزمور وحيان وعقد إنشاء فندق الشيراتون وفندق الميرديان وعقود الهاتف (الخليوي).

خلال السنوات الأخيرة اتجهت النية لإقامة العشرات من مشاريع البنية الأساسية وخاصة في مجالي النقل والسياحة وفعلاً قد بدأ التنفيذ للعديد من هذه المشاريع وخاصة في مناطق الساحل السوري.

نرى أن هذه العقود لو أحسنت الدولة الإفادة منها من خلال أن تنصب على مجالات مهمة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية للدولة ومواطنيها، وتضمنت من الشروط والضمانات ما يكفل تمويلها من مصادر خارج الدولة واستثمار قسم من الأرباح فيها واستخدام العمالة الوطنية وتدريبها على الوسائل التكنولوجية المتقدمة ونظم الإدارة الحديثة.

إضافة لتحقق شرط الرقابة والمتابعة من قبل الدولة على المشروع طوال فترة تشييد المرفق واستغلاله بما يضمن إن تقدم تلك المشروعات أو المرافق خدمات أو منتجات متميزة كماً ونوعاً وبسعر يناسب جمهور المنتفعين بالمرفق ويضمن عدم خروج تلك المرافق عن الأهداف التي أنشئت من أجلها، وأخذت الدولة من الضمانات ما يؤكد أن المشروع سيسلم إليها في نهاية المدة في حالة جيدة يمكنها من استمرار تشغيله. فإذا تحققت هذه الضوابط التي تأخذ باهتمام واقع الدولة السياسي والاقتصادي فإننا نرى أن عقد الـ BOT يمكن اعتماده وسيلة قانونية متميزة لتحقيق قفزة نوعية أساسية في مجال إنجاز المشاريع الضخمة ولكن بشرط أن يتم ذلك وفق ضوابط محددة وذلك على الشكل الآتي:

أ- أن تضع المؤسسات الاستثمارية بشأن تشييد المشروعات المنفذة بنظام الـ BOT، وعقود الدولة عامة، نصاً صريحاً واضحاً يقضي بأن تخضع هذه العقود للقانون الوطني حتى تتلاقى تحديد هذا القانون من قبل هيئات التحكيم، وهو أمر قد يؤدي إلى نتائج سلبية للغاية لمصالح الدولة في سبيل تكريس مصالح الشركات الاستثمارية.

ب- الاهتمام بصياغة العقود بحيث يجب أن يتضمن عقد البوت وعقود الدولة عامة، نصاً صريحاً واضحاً يقضي بأن تخضع هذه العقود للقانون الوطني حتى

تتلافى تحديد هذا القانون من قبل هيئات التحكيم، وهو أمر قد يؤدي إلى نتائج سلبية للغاية لمصالح الدولة في سبيل تكريس مصالح الشركات الاستثمارية.

ت- يجب أن يتضمن عقد البوت ضمانات كافية وفعالة تكفل تعويض الجهة الإدارية في حالة عدم استمرار شركة المشروع في تقديم الخدمة أو المنتج، أو عدم تحقيقها معدلات الأداء المتفق عليها، أو عند إخلالها بالتزاماتها تجاه الجهة الإدارية أو جمهور المنتفعين بخدمات المرفق.

ث- يفضل أن يتضمن عقد البوت نصاً يقضي بإلزام شركة المشروع إجراء الصيانة الدورية اللازمة للمرفق محل التعاقد، حتى يتسنى تسليمه بحالة جيدة إلى الجهة الإدارية المتعاقدة في نهاية مدة التعاقد تسمح لها باستمرار تشغيله بكفاءة.

من الجدير بالذكر أن فرنسا اعتمدت هذه النظام، ومثاله خط انتقال مطار أورلي حيث تم ربط وسط باريس بالمطار عن طريق خط صغير من السكك الحديدية.

وقد سبق للمؤسسة العامة للخط الحديدي الحجازي أن أبرمت عقداً وفق نظام الـ BOT لمشروع قطار السكة الواحدة المحمول على أعمدة ويربط دمشق بالمطار والذي تم إحالة عطائه إلى الشركة الماليزية المختصة وهناك مشاريع أخرى قيد الدراسة.

كان وزير السياحة قد أعلن عن عدة مشاريع سياحية ضخمة وفق نظام الـ BOT ولمدة ٤٥ عاماً ستقام في سورية.

خلال عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠ أعلنت المؤسسة العامة لتوليد ونقل الطاقة الكهربائية عن تنفيذ مشروع لتوليد الطاقة الكهربائية بمشاركة القطاع الخاص وفق نظام BOT.

ومؤخراً قرر مجلس الوزراء السوري بناء عدة محطات كهربائية وفق نظام BOT عام ٢٠١١.

إن ذلك يؤكد وجود توجه جديد في سورية ورغبة قوية لإقامة مشاريع استثمارية ضخمة وفق هذا النظام نظراً لمنعكساته الهائلة على صعيد البنية الأساسية في الدولة.

معجم (متن اللغة)
كتاب عظيمٌ منسيّ

الدكتور محمد رضوان الداية
مدرس في جامعة بلاد الشام

في جُملة حركة التأليف في المعاجم، في القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين) ظهر عددٌ من هذه الكتب كان الناس في حاجة إليها (أو إلى أمثالها)، وفيها: محيط المحيط، وقطر المحيط لبطرس البستاني، وأقرب الموارد للشرتوني و(متن اللغة) لأحمد رضا، والمُنجد للويس معلوف...

وقد واكبت حركة التأليف هذه حركة طباعة المعاجم العربية القديمة منها القاموس المحيط، ولسان العرب، وتاج العروس (شرح القاموس) والمصباح المنير، وأساس البلاغة..

وعملت وزارة المعارف في مصر في أوائل القرن العشرين نسخة جديدة من (مختار الصحاح) فقد حولوا ترتيب المفردات فيه من طريقة اعتماد أواخر الأصول اللغوية إلى أوائلها، تسهيلاً لتلاميذ المدارس، فقد وضع هذا المعجم على هذه الصورة خدمةً لهم . وقد أدّت هذه الطبعة وما نُسِخَ عنها فائدة عظيمة، ودخل المعجم العربي - بذلك - المدارس والبيوت والمكتبات خفيفاً رخيصاً مفيداً.

وكان على حركة تصنيف المعَاجم وصناعتها أن تواكب الحياة الجديدة،

وتستقبل الجديد الكثير مما قدّمته الحضارة الحديثة من الأدوات والأشياء والموادّ، ومن المقاصد والأفكار وما يخص معالجتها والتعامل معها، وأن تكفي العربيّ قارئاً ودارساً ومتابعاً، وذا مصلحة (من وجوه مصالح الحياة المختلفة) . وتصدّى عدد من علماء اللغة لدراسة لهذه القضية في بحوث ومقالات، وفي كتب منفردة مثل كتاب (الاشتقاقوالتعريب) الذي وضعه العلامة عبد القادر المغربي قبل إنشاء المجامع اللغوية . والكلام في هذا الجانب طويل أكتفي منه بهذه الإشارة هنا .

وكان أعضاء المجمع العلمي العربي[١] في دمشق (وهم من علماء الشام: سورية ولبنان وفلسطين، وغيرها أيضاً) قد تنبهوا إلى ضرورة وضع معجم جديد: يقدَّم للقارئ من ماضي اللغة ما يكفي ويفيد، ويزودّه بما يُستَحدث ويوضع لتواكب اللغة العربية - وهي قادرة - العصر الجديد.

وكان أن كَلّفَ مجمع دمشق العلاّمة (أحمد رضا) ليضع هذا المُعجم. وقبل أن يبدأ عمله كانت خطّة الكتاب قد صارت واضحة تماماً . وصحّ العزم على إصدار ثلاثة معاجم: مطول، ووسيط، ووجيز، كما سوف أبيّن.

مؤلف هذا المعجم[٢] ذي المزايا هو العلامة أحمد بن إبراهيم بن حسين بن يوسف بن محمد بن رضا النبطيّ العاملي اللبناني الشامي العربيّ.

ولد سنة ١٨٧٢م وتوفي ١٩٥٣م . تلقّى علومه في (النبطية) و (أنصار) ثم لقي العلماء فأخذ عنهم مثل السيد حسن إبراهيم والسيد محمد إبراهيم» الذي تميّز بالخبرة، والسّعة في الأفق، والشمول في المعرفة، فلازمه وقرأ عليه علومَ المعاني والبيان والمنطق والطبيعيات، وتأثر بأستاذه تأثراً بالغاً في شغفه بالعلوم العصريّة والدّارسات الفلسفّية.

واجتهد الشيخ أحمد رضا في المطالعة وتثقيف نفسه وبذل جهداً شديداً في اقتناء الكتب معلقاً عليها شارحاً ما غمض منها مستعيناً بمن يفوقه في المعرفة والدّراية حتى أدّى به ذلك إلى قِصَرَ البصر.

(١) وتحول اسمه أيام الوحدة مع مصر إلى مجمع اللغة العربية .
(٢) أثبت اسم الشيخ ونسبه كما ورد في خاتمة كتاب (متن اللغة)

والتحق بالمدرسة الحميدية التي أنشأها العلامة السيد حسن يوسف في النبطية معلماً ومتعلماً[1] فاستكمل ما يلزمه من الفقه وأصوله وغير ذلك. وحج سنة ١٨٩٣م.

وانخرط أحمد رضا في الأعمال التعليمة، والاجتماعية، وشارك في بعض الأمور السّياسية (الوطنية القومية)

واشترك في عدد من المؤتمرات الوطنية والعلميّة، وانتخب عضواً فخرياً بلجنة دار الكتب في المسجد الأقصى ومؤتمر بيت مري الثقافي الذي عقدته جامعة الدول العربية.

- وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٠م .

- وللشيخ عدد من المؤلّفات التعليمية، وأبرز أعماله ردّ العامي إلى الفصيح، ومتن اللغة.

في سنة ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ) انتدب المجمع العلمي العربي بدمشق الشيخ أحمد رضا لتأليف معجم «يجمع فيه مَتْنَ اللغة باختصار مفيد ويضم إليه ما وضعه مجمعا دمشق والقاهرة من الكلمات المنتخبة للمعاني المستحدثة، وما دخل في الاستعمال، وطرأ على اللغة زمن العباسيّين والأيوبيّين ومَنْ بعْدَهُم. فتم له ذلك كلّه بعد جهدٍ ونَصَبٍ، داما نحو ثماني عشرة سنة»

وكان الشيخ رضا قد أسهم في كتابة البحوث والدراسات في مجلات شتى منها القضايا اللغوية، ونشرها في الصحف والمجلات ذات الصّلة وصارت له صداقات وزمالات واسعة الطيف من أهل العلم والفكر والأدب والاجتماع والتعليم ... إلخ.

وكان إلى ذلك ينظم الشعر وينشره مع ما ينشر من بحوثه ودراساته المختلفة.

وظهر أثر هذ الاتساع الفكري والثقافي والاجتماعي (والشعبي) في كتابه (متن اللغة) وفي : ردّ العامّي إلى الفصيح) .

ونقرأ للشيخ رضا - رحمه الله – في خاتمة (متن اللغة)[2] « يقول مؤلفه

(١) متن اللغة ١: ٩

(٢) متن اللغة ٥: ٨٤٥

الفقيـر إليه تعالى: أحمد بن ابراهيم بن حسـين بن يوسـف بـن محمد بن رضا النبطي العاملي اللبناني الشامي العربي»

«الحمد لله على ما وفقنا له من إتمام هذا الكتاب المسـّمى (متن اللغة) وقد فرغتُ من تأليفه وتصنيفه وتسـويده صباح يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة الحرام من سـنة ثمان وخمسـين بعد ثلاث مئة وألف من الهجرة النبويـة علـى صاحبها أفضل الصـلاة وأتم التحية (٢٩ كانون الأول ديسـمبر ١٩٣٩)..»

ثـم ذكر أن الكتاب بقي بين يديه» قيد المراجعة والتنقيح على الأمهات من كتب الأئمة المتقدمين حتى سنة ١٩٤٧م تاريخ اتفاقه مع المجمع العلمي العربي على البدء بطبعه سنة ١٩٤٨م

ونقـرأ في تصديـر الكتاب (وهو رهن التوّقيع) وظاهر أنه من عمل اللّجنة التي أشرفت على طباعة الكتاب . ولذلك قصة! .

جـاء فـي التّصديـر[١] «كاد المجمع العلمـي العربي يباشـر طبع المعجم المطول (متن اللغة) بعد أن رصد في ميزانيته مبلغ ٤٢٥٠٠ ليرة سـورية سنة ١٩٤٨م وحوّله إلى لجنة مؤلفة من الأسـاتذة: محمد كرد علي رئيسـاً، وخليل مردم بك، والأمير سـعيد الجزائري، والشـيخ عبد القـادر المغربي، والدكتور جميـل صليبا أعضاء، لـولا أنّ مرضاً ألم بالمؤلف فقعد به عن متابعة الاهتمام بالطبـع والإخراج، بعـد أن فجعه الدّهر في ٨ آذار ١٩٤٨ بولده البكر د. أحمد علي رضا، وهو في ميعان الصّبا وبوادر الشباب. وبعد إبلاله من مرضه حالت الأحداث السياسـية في سـورية العزيزة وما رافقها من انقلابات عسكرية دون تحقيـق هذه الأمنية، فاختفى المجمع واختفت معه مشـاريعه، ولم يبق منه غير الذكريات»[٢].

وقد نقلتُ العبارة كاملةً ليتضح للقارئ «سـوء حظ» هذا الكتاب (إن كانت هذه العبارة ممّا يقبل في قضايا العلم).

(١) مقدمة متن اللغة ١: ٧ (من التصّدير)
(٢) مقدمة متن اللغة ١: ٧ (من التصّدير)

ومضت سنوات حالت الظروف المادية – كما في ذلك التصدير – دون إخراج الكتاب. وظهر رجلُ خير – طلب ألا يذكر اسمه – فتبرع بعشرة آلاف ليرة لبناينة مؤازرةً منه لمشروع الكتاب، «ثم تقدّمت دار مكتبة الحياة في بيروت لحمل ما بقي من عبء إنجازه ثقةً منها بعِظَم فائدة المعجم والقاموسين (الوسيط والموجز) ...إلخ» [1] وتألفت لطبع تلك الآثار (متن اللغة، والوسيط، والموجز) لجنة من الأساتذة: الشيخ سليمان الضاهر، والشيخ أحمد عارف الزين، والدكتور عمر فرُّوخ، ومحمود صفيّ الدين، ود. كمال الحاج، والسيّد محمد الحسن، ومحمد جميل بيهم، ود. نزار رضا، ورمضان لاوند، ومصطفى دمشقية، وغالب رضا، ويحيى الخليل.

وذكرت المقدمة تعاطف جهات كبيرة في لبنان وخارجه مع هذا المشروع الكبير.

وفي عبارة الختام عرفنا أنّ نَجل المؤلّف د. محمد نزار رضا أشرف مع اللجنة على إخراج الكتاب. وانتهى طبعه في ٢٠ شباط ١٩٦١م (وامتدت طباعة الأجزاء الخمسة ومراجعتها ثلاث سنوات) (١٩٥٨ – ١٩٦١م).

قلت/ وقد طُبِعَ متن اللّغة، ونشر في أجزاء محدودة متلاحقة، على منشط كان معمولاً به في طبع الكُتب الكبيرة تسهيلاً على القارئ، وتخفيفاً عنه كي لا يدفع ثمن الكتاب بتمامه مرّة واحدة. ثم صدر كاملاً دفعة واحدة في خمسة أجزاء .

قدم الشيخ العلامة أحمد رضا للكتاب بمجموعة من المقدمات في ترتيب الكتاب، وخطته في إيراد الموادّ، وما اختاره (أو فضّله) من معجم دون آخر من المعاجم التراثية، ومَهّد لهذا الجديد الذي يقدّمه في العَرْض والاختيار، والاستيفاء، والأخذ عن المجامع في ما أقرّته. وقررته في أمور اللّغة.

ترتيب الكتاب

على سبع صفحات من القطع الكبير في مقدمة من مقدمات الكتاب [2]

(١) من أواخر تصدير متن اللغة ١: ٨
(٢) ترتيب الكتاب ١: ٧٢

وتحت عنوان (ترتيب الكتاب) بيّن المؤلّف للقارئ المختصّ، والمستجدّ ما صنعه في ترتيب موادّ المعجم وقدّم للقارئ دليلاً هادياً يغنيه عن أن يسأل أو يستشكل أمراً من الأمور.

١- وضع مقدمة مطولة في نشأة اللغات، وفي نشأة اللغة العربية خاصّة، وطبعت هذه المقدّمة – كما في المتن[١] بكتاب خاص سمّاه: (مولد اللغة).

٢- بيّن المؤلف للقارئ منهجه في ترتيب مواد الكتاب، وفصّل في جزيئات العمَل، تيسيراً على القارئ، وضمانا لوصوله إلى مراده بسهوله، وسرعة أيضاً.

٣- ورتب المعجم على أصل المادة المجّردة من الزيادات في الحروف كما هي الحال في سائر المعاجم العربية قديمها وحديثها.

- وبدأ بالترتيب على نسق فالألف قبل الباء، والألف مع الباء قبل الألف مع التاء، وهكذا في ثالث الحروف منها...
- وإذا ذكر الفعل الثلاثي ذكر مصادره جميعاً لأنها سماعية (ليس لها ضابط مُطّرد).
- وذكر النسب الشاذة عن القياس كالسجزي نسبة إلى سجستان، والمروري نسبةً إلى مرو،
- وذكر الجموع لأنها في الثلاثي سماعية في الأغلب
- واختار من شروح المفردات (من المعاجم السابقة) أسهلها وألينها.
- وذكر ما صنعه مجمع دمشق برمز (م د) ومجمع مصر برمز (م م)
- واستوفى الكلام على المكاييل والموازين ومقادير المساحة.
- وذكر ما أهمله اللغويون من مفردات العصر العباسي، والمملوكي .
- وردَّ كثيراً من العامي إلى الفصيح وذكر العامي في أسفل الصفحة (معتمداً في الأغلب على لهجة بلده – جبل عامل)
- حذّرَ من كتب المتأخرين خشية الوقوع في الخطأ، وذكر وقوع صاحب (أقرب الموارد) في الأخطاء الكثيرة لعدم احترازه.
- ونبّه القارئ على أنه قد يفاضل بين كتابين (معجمين) مشهورين مفضلاً ما ورد في أحدهما على الآخر، ويوازن ويختارُ ما يراه أعلى.

(١) ترتيب الكتاب ١: ٧٢

- وذكر المؤلف القارئ ببعض الأمور الصرّفية المناسبة.

لقد أدَّت تلك الظروف والملابسات المختلفة إلى مجموعة من الأمور:

١- تأخر صدور الكتاب من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦١م

٢- عدم تنفيذ الاتفاق المبرم بين مجمع دمشق في تلك المدّة وبين المؤلّف وقد أشارت المقدمة (في التصدير) إلى هذا.

٣- غياب السّند الإعلامّي للكتاب، أو ضعفه حتى إنّ الاهتمام به لم يكن على الوجه الّذي يستحقّه من حيث بيان فائدته وجدّته، وتلبيته حاجة الدّارس من المعجم اللغوي العصري (عند صدوره وفي السنوات التالية أيضاً) إلى أن تصدر طبعة ثانية، وثالثة كما تقتضي حركة اللغة المتزامنة مع حركة شؤون الحياة.

٤- حلول المعجم الوسيط (الذي ظهر في جزأين)، وصدر عن مجمع اللّغة العربية بمصر محلَّه، وقد صدر (المتن) و(الوسيط) في مُدّتين متقاربتين جدّاً.

٥- وظهر من المعجم الكبير في مجمع مصر عدد من الأجزاء استكمالاً لفكرة المعاجم الثلاثة: الوسيط والوجيز والكبير التي صدرت أولاً في دمشق: عن مجمع دمشق فكرة ورأياً وخطة عامة، وعن الشيخ العلامة أحمد رضا عملاً وتأليفاً وتصنيفاً، استنفد جزءاً كبيراً من عُمره وجهده.

صحيح أن العمل العلمّي يكمّل بعضه بعضاً، لكنّ ما جرى على (متن اللغة) من مطاولة الزّمن وتأخر الطباعة، وفقدان الرعاية المجمعيّة والإعلاميّة أَسْهمَ في التعميم غير المقصود، وعدم الإفادة منه على الوجه الذي يحقّقه، ويستحقّه.

والذي لا شك فيه أنّ ما صنعه الشيخ أحمد رضا في معجم (متن اللغة) عمل راقٍ، فائق الجودة، مُحكم الصَّنعة، عظيم الفائدة، يحقق (إلى زمان نشره) كثيراً ممّا طمح المجمع، والمؤلف إليه.

وهو - في رأيي - في حاجة إلى إحياء، باتباع الخّطة نفسها من التوسّع اللّغوي بالعودة إلى قرارات المجمع اللّغويّ في مصر، وفي غيره؛ وتحديث كل ما يلزم تحديثُه، الذي يحفظ سلامة اللغة وأصالتها، ويتيح لها أن تواكب حركة الحياة في وجوهها المختلفة على منهج علميّ أصيل، وعن وعي لغويٍّ سليم، وعن رغبة (محسوبة الخطوات) في التأصيل والتجديد.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
١٤٣٠

المسألة السلوكية وعمل المدير في المنظمات المعاصرة

الدكتوربسام التزه

أستاذ مساعد في قسم إدارة الأعمال – كلية الاقصاد - جامعة دمشق، و قسم الاقتصاد في مجمع السيدة وقية عليها السلام

مقدمة

يواجــه المدير في أيــة منظمة كانت العديد من المشــكلات التي تحتاج إلى حــلّ لها، وقد تختلف المشــكلات باختلاف طبيعتها، إنتاجية، تســويقية، مالية، ســلوكية..إلخ، إن أصعب تلك المشــكلات كما يرى علمــاء الإدارة التي تتعلق بالعاملين وســلوكياتهم المخالفة، ما يفرض على المدير الإلمام بطبيعة العاملين الذين يعملون في وحدته الإدارية ويشــرف على أعمالهم، وعندما نقول بطبيعة العاملين نقصد بذلك فهم العاملين وصولاً لفهم ســلوكياتهم المختلفة التي تختلف باختلاف شــخصياتهم ومجموعة أخرى من العوامل المســببة لتلك السلوكيات، وقــد ينشــأ نتيجة تلك الســلوكيات انحــراف أو اختلاف في الســلوك التنظيمي المســتهدف وهو ما ســيؤثر حكماً على الأهداف العامة للمنظمة واستراتيجيتها ورســالتها في المدَييْن المتوســط والبعيد، لذلك يتوجب عليه أن يُلمّ بعلم السلوك التنظيمي و تقنياته للوصول إلى ذلك الفهم، وحلول مشكلات السلوك التنظيمي في منظمته، فما هو السلوك التنظيمي؟ وما هي المسألة السلوكية، وكيف يدركُها المدير المعاصر؟ وكيف الســبيلُ إلى معالجتها وحلّها؟ هذا ما ســنجيب عنه في هذه المقالة العلمية.

١-مفهوم السلوك التنظيمي، وطبيعته

يحتاج الدارس لعلم الإدارة، والممارس لها إلى التعرُّف إلى مفهوم السلوك التنظيمي و طبيعته، وهو ما سنوضحه وفق الآتي:

يُقصد بتعبير السلوك بدايةً:كل أنواع التصرفات التي يمارسها الإنسان في حياته سواءٌ الظاهرُمنها، وما يمكن ملاحظته بوِساطة الآخرين، أو السلوك الباطنالذي يصعُب ملاحظته بشكل مباشر، وإنما يُستدل عليه غالباً من خلال ملاحظة أو قياس السلوك الظاهر وباستخدام المقاييس والأدوات المناسبة .

أما السلوك التنظيمي فيُعرّف بأنه: العلم الذي يدرس سلوكيات الأفراد والجماعات في منظمات[١] الأعمال، و يعمل على تحليلهِ وتفسيرهِ في محاولة للتنبؤ، والتحكم به، وتوجيهه من قبل الإدارة بما يتفق والأهداف المحددة للمنظمة.

٢-مجالات دراسة السلوك التنظيمي

قسَّم الباحثون مجال دراسة السلوك التنظيمي إلى ثلاثة مجالات[٢] متميزة عن بعضها،:

أ- السلوك التنظيمي الجزئي: المشتق من علم النفس، والعلوم السلوكية، وموضوعه الفرد بصفته وحدة أو مجالا للدراسة، والبحث بما يمتلكه من خصائص نوعية متميزة.

ب- السلوك التنظيمي الوسط: الذي نشأ عن علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع التفاعلي، وموضوعه جماعات العمل وتأثيرها على السلوك الفردي.

ت- السلوك التنظيمي الكلي: الذي نشأ عن الاقتصاد، وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا، وعلم السياسة، وموضوعه السلوك الكلي للمنظمة بصفته ناتج عملية تفاعل كلٌّ من السلوك التنظيمي الفردي، والوسط والكلي.

١- تُعرّف المنظمة، Organization بأنها: بنية من العلاقات التي تتكون عندما يعمل فردين أو أكثر بشكل متعاون وجماعي لتحقيق مجموعة من الأهداف.

٢- يتماشى هذا التوجه مع ما طرحه (غريس أرجيرس) في نموذجه عن التنظيم والسلوك التنظيمي، حيث رأى أن السلوك التنظيمي يتكون من تفاعل ثلاثة عوامل هي:١- عوامل شخصية، أي محددات السلوك الفردي، أو الجزئي.٢- عوامل اجتماعية، وتأثير جماعات العمل على الفرد (السلوك الوسط)، ٣- وأخيراً عوامل تنظيمية رسمية التي تحدد السلوك التنظيمي الكلي الناجم عن تفاعل جميع أجزائه.

بعد أن تعرفنا السلوك التنظيمي ومجالاته يجدر بنا التفريق بين ثلاثة أنواع من السلوك .

السلوك الإنساني، والتنظيمي، والإداري، فالسلوك الإنساني أعمُّ، و أشملُ من السلوك التنظيمي، فهو يتكون من كافة أنواع سلوك الإنسان في حياته العامة، والخاصة على حدٍ سواء. أما السلوك التنظيمي; فيشمل سلوك كافة فئات العاملين في المنظمات.

أما الفرق بين السلوك التنظيمي، والسلوك الإداري فيكمن في أن السلوك التنظيمي يشمل سلوك العاملين في كافة المستويات الإدارية من عاملين وإداريين على حد سواء. أما السلوك الإداري فيخص فئة المشرفين والمديرين الذين يشرفون على أعمال الآخرين، من رؤساء الورش والأقسام والإدارات، وصولاً إلى الإدارة العليا.

يعني مما تقدم أن مجال السلوك التنظيمي أعم وأشمل من مجال السلوك الإداري، وأن مجال السلوك الإنساني أعمُّ وأشملُ من مجال السلوك التنظيمي.

الش كل رقم: (١) مجالات دراسة السلوك التنظيمي:

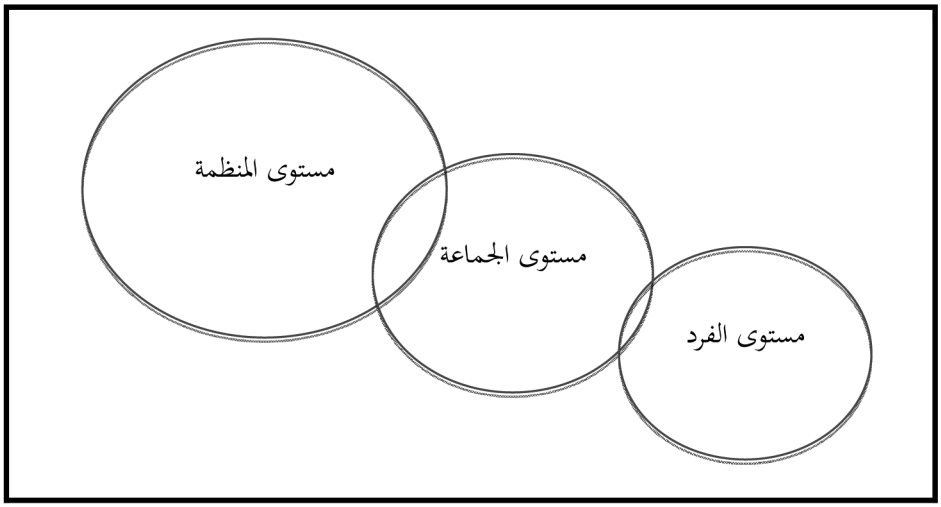

ينتمي علم السلوك التنظيمي إلى مجموعة علوم السلوك الإنساني التي هي جزءٌ من العلوم الإنسانية; فهو علمٌ معنيٌ بدراسة سلوك الإنسان العامل في

منظمات الأعمال. هذا يعني أن موضوعه هو سلوك الفرد العامل في المنظمة، مديراً كان هذا العامل أم عاملاً منفذاً، وفي أي مستوى تنظيمي كان. فهو معنيٌ بدراسة العوامل التي تؤثر في: كيف يعمل الأفراد والجماعات؟ وكيف يفكرون، ويشعرون، ويستجيبون للعمل و لقرارات الإدارة؟ و كيف يمكن أن تكون تصرفاتهم إيجابية و فاعلة؟ ثم كيف تستجيب إدارة المنظمة إلى البيئة التي تعمل فيها هي و بيئة عمل الأفراد والجماعات أنفسهم.

الآن وبعد أن تعرفنا على مفهوم السلوك التنظيمي، وطبيعته وموضوعه، ومجالاته، نسأل السؤال الآتي ماالمسألة السلوكية إذن؟ وأين تكمن؟

٣-المسألة السلوكية

يُقصد بالمسألة السلوكية[١] وجود عوائق تمنع الفرد، أو المنظمة من تحقيق أهدافهما، وأن مصدر أحد تلك العوائق هو السلوك التنظيمي (الفردي أو الجماعي، بمعنى بعض، أو كل أفراد المنظمة) الذي قد يختلف، أو لا يتوافق على الأقل مع نمط السلوك المستهدف من قبل إدارة المنظمة. وعندما نقول إنه يختلف، فقد يأخذ هذا الاختلاف درجات تتوزع بين البساطة والشدة، وتزداد المسألة السلوكية، كلما زادت درجة الاختلاف، والتباين في التوجهات والأهداف. يعني ذلك أن ثمّة تناقضاً بين توجهات السلوك التنظيمي (أفراداً وجماعات)، وبين أهداف، وتوجهات إدارة المنظمة (السلوك الإداري)، وهنا يكمن جوهر المسألة السلوكية، وهم ما يتوجب على المدير المعاصر الانتباه له في أثناء ممارسته عمله الإداري، خاصة إذا كانت طبيعة ذلك العمل إشرافية على أعمال الآخرين.

يكمن الخطر الذي يهدد المنظمة إذا استمر هذا التناقض لمدة طويلة، والأخطرمن كل ذلك عدم إدراك الإدارة لتلك المسألة؛ الأمر الذي يهدد أهداف المنظمة وعملياتها بالزوال.

١ - يُستخدم مفهوم المسألة السلوكية للدلالة ليس فحسب على مشكلة فردية بذاتها، بل لكل أنواع المشكلات التي تواجهها المنظمة، والتي تظهر في اختلاف السلوك التنظيمي الفعلي عن السلوك التنظيمي المستهدف أو المخطط.

إن الاختلال التنظيمي الناتج عن المسألة السلوكية قد يأخذ جانبين، الأول: جانب سلبي. والثاني جانب إيجابي، أما الجانب السلبي للمسألة السلوكية هو:

عندما يكون الاختلاف في السلوك صادراً عن دوافعَ و توجهات سلبية; فيتجلى في النتائج السلبية على كمية أداء أعمال المنظمةوجودتها، مثل: زيادة تكلفة الأداء، و إطالة وقت الإنجاز، وعدم الدقة في الأداء وغيرها من النتائج السلبية. هنا تعمل الإدارة لزيادة مستوى الأداء الفعلي; ليصبح متوافقاً مع مستوى السلوك المستهدف أو المخطط.

أما الجانب الإيجابي للمسألة السلوكية فيتجلى في النتائج الإيجابية الصادرة عن دوافعَ إيجابيّةٍ، وذلك عندما يكون الاختلاف في السلوك (الفعلي والمستهدف) صادراً عن دوافعَ و توجهات إيجابية تسعى للتميّز والتفوق بمعدلات تفوق السلوك المستهدف للإدارة. ويظهر هذا السلوك في المنظمات المرنة التي تطبق مفاهيم اللامركزية، والتمكين، والإدارة بالأهداف وغيرها. حيث يجد العاملون فرصاً للإبداع و الابتكار و تقليل الوقت و التكلفة، بما يفوق ما خططت له الإدارة (السلوك المستهدف). وهنا تظهر المسألة السلوكية بصفتها مصدراً للإبداع و التميّز، خاصة في المنظمات الرائدة المبدعة. وتعمل الإدارة هنا على رفع مستوى الأداء الفعلي إلى مستوى الأداء المتميز والمتفوّق الذي هو نمط السلوك المستهدف، أو المخطط بشكلٍ دائم.

٤-مظاهر المسألة السلوكية، وآثارها في المنظمات المعاصرة

تتعدد وتتباين مظاهر المسألة السلوكية في المنظمات المعاصرة، بحيث يمكن تحديد أهم تلك المظاهر بالآتي:

- السلوك غير الملتزم بمواصفات الجودة في الأداء، و تكرار العيوب في المنتجات و العمليات.
- انخفاض الإحساس بقيمة الزبون، أو أطراف التعامل، وأهمية العمل على كسب رضاهم على اعتبار أن الزبون سيّد السوق بلا منازع، و أن العمل على كسب رضاه يُعد المحدد الرئيس لبقاء المنظمة واستمرارها.

- انخفاض الإحساس بقيمة المعرفة وضرورة تطويرها، بما يساعد الأفراد في تطوير كفاياتهم، وتحسين أدائهم، والركون إلى معارف قديمة رغم جهود التنمية، و التدريب التي تنفقها المنظمة; فالمسألة السلوكية هنا تكمن في عدم استخدام ما هو متاح لهم من معارف وتقنيات في أدائهم، وهو ما نراه في المنظمات الحكومية التقليدية.
- انخفاض الإحساس بأهمية التطوير و الابتكار، وإخفاء المعلومات التي يستطيع الأفراد توظيفها في خدمة الأداء، والركون إلى الأداء بالطرق القديمة، أو تقليد الآخرين في التنظيمات المبدعة.
- إخفاء المعلومات، والأفكار عن الآخرين من قبل الإداريين، وعدم الإفادة منها في تطوير أداء المرؤوسين، ولا حتى المشاركة في البحث عن حلول لمشكلات العمل، و الاهتمام بمشكلات الوقت الراهن دون بحث قضايا المستقبل.
- إهمال فرص التعاون و التكامل بين الأفراد، و تغليب وجهة النظر الفردية، و رفض العمل بروح الفريق.
- إهمال العمل وفق المعايير المستهدفة في الأداء من حيث الوقت والأداء والسرعة في الأداء و التكلفة المعيارية، فضلاً عن مستويات ومعايير الجودة.
- مخالفة قواعد العمل، من حيث مواعيد الحضور والانصراف، و اللباس، التقيد بمعايير الأمن و السلامة في العمل.
- تغليب المعايير الشخصية و المصالح الذاتية عند اتخاذ القرارات الإدارية.
- مقاومة التغيير لما تستهدفه الإدارة، حيث تظهر المسألة أو الفجوة السلوكية التي ينبغي التعامل معها بشكل إيجابي لاستعادة التوازن للمنظمة.

٥- آلية التعامل مع المسألة السلوكية

قد تختلف، وتتباين آلية التعامل مع المسألة السلوكية من منظمة لأخرى، باختلاف نظرة الإدارة و فهمها لها، وقد تتراوح أساليب التعامل معها وفق الآتي:

أ- تجاهل وجود المسألة بالأساس.
ب- التعايش معها، و قبولها كأمرٍ واقع.
ت- التنازل عن السلوك المستهدف، وقبول السلوك الفعلي كما هو، وكأنه هو كل ما تريده الإدارة، وتختفي بذلك المسألة السلوكية ظاهرياً على الأقل.
ث- الإصرار على السلوك المستهدف، ومحاولة فرضه بالقوة.
ج- عدم القدرة على مواجهة المسألة السلوكية، وبالتالي الانسحاب من الموقف تماماً، كما يحدث في حالة تصفية المنظمة.

في مواجهة تلك الحالات قد تستخدم الإدارة درجات متباينة من أساليب الإقناع، أو الترغيب، أو التهديد، أو الردع، لمعالجة حالات عدم التوازن بين السلوك الفعلي والسلوك المستهدف. غير أنه من الأفضل للإدارة اتباع الأسلوب العلمي في التعامل مع المسألة السلوكية، الذي يقوم اتباع الخطوات الآتية٩:

أ- تحديد أنماط، ومعايير السلوك المستهدف: ويتم ذلك وفق تقنيات إدارة الموارد البشرية، مثل تقنية إدارة الأداء حيث يتم إعداد خطة الأداء لكل فرد أو مجموعة من خلال معرفة وصف الوظيفة ومواصفات الأفراد المناسبين لشغل كل وظيفة، ثم مراجعة استراتيجيات وخطط وأهداف المنظمة، ومعرفة دور الوظيفة في تحقيقها. وهنا تُعدُّ خطة الأداء الوثيقة الأساسية التي تعتمدها الإدارة في تحديد السلوك المستهدف من الفرد أو المجموعة، متمثلاً في أداء عمل معين يلتزم مواصفات محددة من الجودة، والتوقيت والكمية، والتكلفة، ومتوافقاً مع نظم، وتقنيات، ومراحل الأداء المحددة من قبل الإدارة.
ب- معرفة أنماط السلوك أو الأداء الفعلي، من خلال عمليات، الإشراف والرقابة والاتصال المختلفة، وتبيان مدى مساهمة تلك الأنماط السلوكية في تحقيق أهداف المنظمة.
ت- تحليل الفجوة السلوكية: من حيث، أماكن وجودها، وحجمها أو مدى التباعد بين السلوك الفعلي والسلوك المستهدف. ثم مدى انتشارها بين أقسام المنظمة المختلفة، ومدى تكرار ظهورها. بالإضافة إلى معرفة مصادرها، وأسبابها، والآثار المترتبة عليها.

ث- إن تحليل الفجوة السلوكية يعني فهم وتفسير السلوك التنظيمي الذي يُعدُّ الخطوة المنطقية الأولى في محاولة التعامل مع المسألة السلوكية.

ج- العمل على ردم الفجوةالسلوكية: من خلال معرفة البدائل المتاحة أمام الإدارة، واختيار البديل الأنسب الذي يناسب السلوك المستهدف.

إن التعاملَ مع أسباب المسألة السلوكية، يُعدُّ الخطوة الأساس في معالجتها من قبل الإدارة المعاصرة، بعد أن تبين قصور محاولات تهدئة أو تسكين المسألة، فقد تنجح بعض تلك المحاولات ظاهرياً؛ لكنها قد تفشل في إنهائها من جذورها. وقد يؤدي عدم التعامل الجدي معها إلى كمونها ظاهرياً؛ لتنفجر لاحقاً بشكلٍ حادّ عما كانت عليه في بدايتها. حيث يَصعُبُ في هذه الحالة السيطرة عليها؛ فقد تحتاج إلى وقت، وتكاليف، وجهود كبيرة لمعالجتها.

نرى من كل ما سبق أن المسألة السلوكية تتجلى في الكثير من جوانبها في شكل اختلاف عما يصدر عن أفراد المنظمة من أنماط سلوكية، وعما تريده المنظمة من نتائج مستهدفة، وبالتالي سلوكيات مستهدفة تنسجم والنتائج المرجوة، والنتيجة اختلال التوازن التنظيمي الذي يستدعي تدخل الإدارة لإعادة التوازن إلى عملياتها الداخلية.

إن دراسة و فهم السلوك التنظيمي يساعد الفرد والإدارة معاً على تعزيز السلوكيات الإيجابية وتقليل السلوكيات السلبية عند أداء العمل في المنظمة؛ لهذا فإن دراسة السلوك التنظيمي و فهمه يساعد التعرف على العوامل المكونة له وتأثيرها على أداء الفرد في العمل. كما ويساعد فهم السلوك في فهم عملية اتخاذ القرارات الصحيحة حول كيف يتصرف الأفراد في العمل ويتعاونون مع الآخرين لإنجاز أهداف المنظمة.

يجمع علماء السلوك التنظيمي على أن أهداف دراسة السلوك التنظيمي تكمن في:

أ- فهم السلوك، وتفسيره من خلال التعرف على مسبباته.

ب- التنبؤ بالسلوك عند معرفة مسبباته.

ت- توجيه السلوك و التحكم به من خلال التأثير في مسبباته.

فمن أجل التوصُّل إلى تفهّم معمق لسلوك الفرد في العمل بغية توجيهه لخدمة أهداف المنظمة، لا بد من تحليل السلوك وتفسيره؛ لمعرفة أسبابهمع ملاحظة أن تفسيره يُعدُّ أكثرَ صعوبة وتعقيداً من التنبؤ به، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

- إن أي سلوك ينطوي عادة على أكثر من سبب أو عامل.
- إن السلوك المعني قد يتضمن العديد من الأسباب، وكل سبب من هذه الأسباب قد يتطلب نوعاً معيناً من الحل أو العلاج.
- إن الأسباب التي تفسر سلوكا معينا تتغير من وقت لآخر.

نستنتج من كل ما تقدم أن حل المسألة السلوكية، يبدأ بالفهم العميق لسلوكيات الأفراد والجماعات على حد سواء. وأن الممارس للعمل الإداري الإشرافي على وجه الخصوص يجب أن يعرف ما مسببات السلوكيات الإيجابية (للإفادة منها) والسلبية لمعالجتها، وجعلها تنسجم مع السلوكيات المخططة أو المستهدفة، وأن الوصول إلى ذلك يجب اللجوء إلى المنهج العلمي بصفته الوسيلة المناسبة للوصول إلى حل مناسب يحقق أهداف التنظيم والأفراد والجماعات على حدّ سواء.

المراجع العلمية

١- السلمي، علي: إدارة السلوك التنظيمي، مكتبة الإدارة الجديدة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص، ١٩٧-٢٠١٢ بتصرّف.
٢- السلمي، علي: إدارة السلوك التنظيمي، المرجع السابق، ص، ١٩٨.
٣- السلمي، علي: إدارة السلوك التنظيمي، المرجع السابق، ص، ٢٠٥.
٤- القريوتي، محمد قاسم: السلوك التنظيمي، دار وائل للنشر، ٢٠٠٩م، الطبعة الخامسة، ص، ٣١.
٥- المرسي، جمال الدين محمد. إدريس، ثابت عبد الرحمن: السلوك التنظيمي، مرجع سابق، ص، ٤٦.

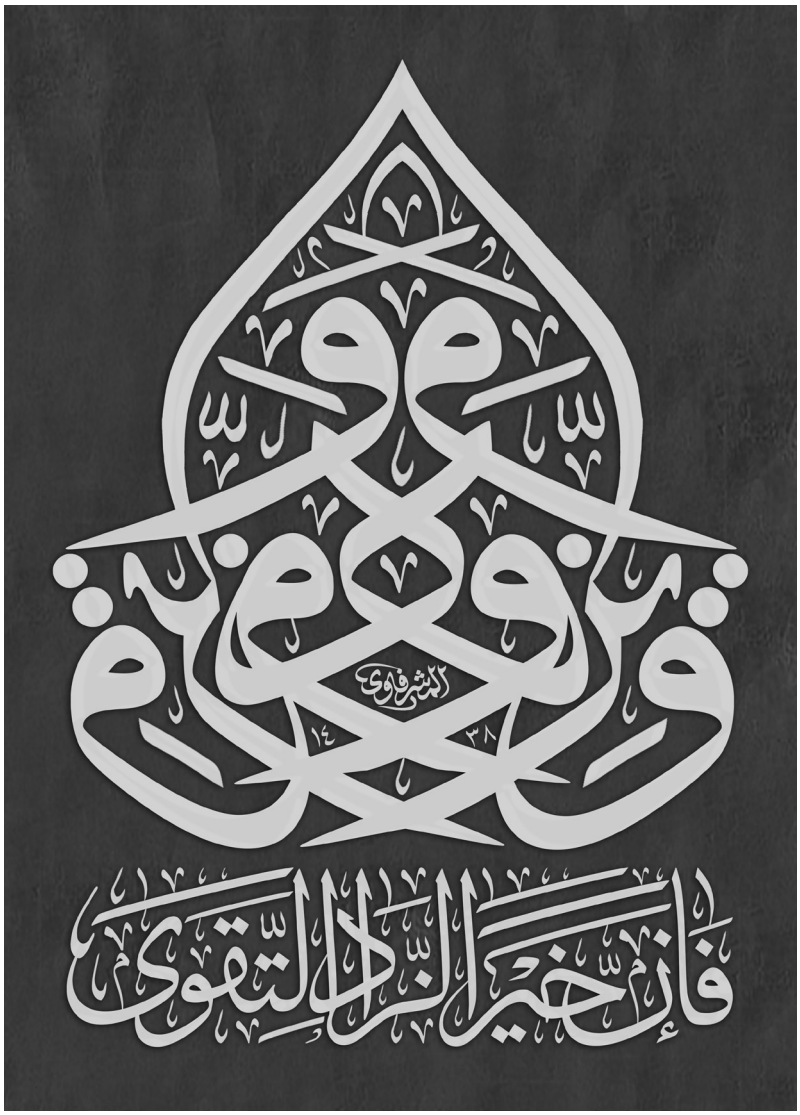
فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى

الخيانة الزوجية وأثرها في المجتمعات الشرقية

الأستاذ الدكتورة سلوى مرتضى
مدرسة في مجمع السيدة رقيه عليها السلام

إن أجمل ما في الحياة الزوجية ذلك الإخلاص الذي يكنه كل طرف للآخر وتلك المشاعر السامية والرومانسية التي تسود بين الطرفين وانعدام الإخلاص من قبل أحدهما يفقد الحياة الزوجية طعمها ويحولها إلى جحيم لا تحمد عقباه، ناهيك عن الخلط في الانساب والسلالات، فالثقة أساس السعادة وأساس الأسرة السليمة، وإن كل زواج قد تعترضه في البداية مشاكل عديدة إلا أن خيانة أحد الطرفين للآخر من أهم ما قد يتعرض إليه الزواج من عقبات وتظل آثاره تلقي على بيت الزوجية ظلالاً كئيبة. وإن الخيانة الزوجية لا ترتبط بمجتمع معين ولا بزمن معين فهي موجودة في معظم المجتمعات وفي كل الأزمان، وإذا أردنا تعريف الخيانة فهي علاقة غير شرعية يقيمها أحد الزوجين مع طرف ثالث لذلك الخيانة يمكن أن تكون علاقة جنسية أو قد تكون علاقة عاطفية أي خيانة في المشاعر والأحاسيس فغالباً ما تبدأ الخيانة بالإعجاب وبتبادل الكلام والمشاعر وتنتهي بالعلاقة الجنسية.

أسباب الخيانة الزوجية

هي نتيجة تراكم عدد من الأسباب وليس لسبب واحد منفرد، إلا أنه يأتي في مقدمة الأسباب ضعف الوازع الديني لدى المرء سواء أكان امرأة أم رجلا وكذلك سوء التربية والتنشئة الاجتماعية التي تعرض لها، لأن الأسباب الأخرى يمكن السيطرة عليها تقريباً إذا تم التعامل معها بشكل إيجابي وسنتناول الموضوع من جانبين.

لماذا يخون الرجل زوجته ؟

يخون الرجل زوجته لعدة أسباب مجتمعة أو متفرقة نذكر منها:

١- إذا كان صاحب شخصية مضطربة أو غير أخلاقية أو إذا كان يتعاطى المخدرات أو الكحول.

٢- إذا كانت الزوجة مريضة أو هنالك صعوبات تحول دون قيامها بواجباتها الزوجية.
٣- إذا كان الزوج مصاباً بعقد نفسية أو لديه شذوذ جنسي أو ميول جنسية غير مألوفة.
٤- إذا كان لدى الزوج رغبة جنسية جامحة ولم يتم إشباعها من قبل زوجته، ولا يستطيع أن يتزوج زوجة ثانية.
٥- إذا شعر الرجل أن زوجته ليست على المستوى المطلوب من الجمال أو الأنوثة وهو يشعر هذا الشعور نتيجة لما يشاهده في القنوات الفضائية أو الأفلام، ويجري مقارنة بين ما يشاهده وما عنده.
٦- إذا كانت الزوجة لا تبادل زوجها المشاعر والأحاسيس ولا تهتم بالقيام بواجباتها الزوجية.
٧- الاختلاط الزائد عن حده الذي يتم عادة في العمل لساعات طويلة، تتحول ساعات العمل أحياناً لأحاديث جانبية.

لماذا تخون الزوجة زوجها؟

تخون الزوجة زوجها لعدة أسباب منفردة أو مجتمعة نذكر منها:

- ضعف شخصية الرجل مع قوة غير طبيعية في شخصيتها بحيث تسيطر المرأة على كل شيء.

١- إذا كان الزوج غير قادر على القيام بواجباته الزوجية.
٢- غياب الزوج المتواصل عن المنزل ولفترات طويلة حيث إن للمرأة متطلبات كما للرجل متطلبات.
٣- اضطراب شخصية الزوجة كعدم نضجها ومحاولاتها لتوجيه الانتباه وجذب الآخرين عاطفياً ومحاولاتها لإغواء الجنس الآخر مع وجود اضطرابات مصاحبة كالاكتئاب ومحاولات الانتحار.
٤- تخون انتقاماً لأنها كشفت خيانة لزوجها.
٥- الفارق الكبير بالسن بين الزوج وزوجته بحيث تبقى هي في ريعان الشباب ويدخل هو مرحلة الشيخوخة.

وقد تسأل بعض الناس فيضيفون أسباب أخرى للطرفين كقولهم إن تطور التكنولوجيا في مجال الاتصالات والإنترنت قد يساهم بشكل غير مباشر في تسهيل الخيانة الزوجية، علما أن الخيانة الزوجية موجودة في العصور القديمة بشكل لا يقل عماهو موجود في عصرنا، وموجودة في حقب التاريخ والمجتمعات المختلفة لكن القضية قضية نسبة حدوثها وانتشارها والكلام عنها ونظرة المجتمع لها. يمكن

أن نقـول إن الخيانة الزوجية فـي مجتمعات المدن الكبرى، أصبحت مخيفة، حيث إن مسائل الخيانة تطرح أحياناً وينظر إليها بتقليل من حجمها وأثرها، وقد تعد نوعاً من الحرية الشخصية بل وتقبل بعض المجتمعات الغربية، أن تكون هنالك علاقات جنسية مع غير الأزواج أو الزوجات ماداما متفاهمين على ذلك وراضيين بذلك.

ولا تقف أسـباب الخيانة عند هذا الحد بل هنالك أسـباب عامة يأتي في مقدمتها العلاقات الحميمية المعتادة قبل الزواج من قبل الرجل أو المرأة مع طرف أخر وما يتبعهـا بعـد ذلك من المقارنات بعد الزواج، إضافة إلى ما نسـميه التقليد والمحاكاة لدى بعض الرجال ومحاولة إثبات الرجولة من خلال مغامراتهم مع النسـاء فمادام للرجـل صديق يخـون زوجته فإنه يكون قدوة له وإلا أصبح موضع سـخرية منه، ومن جهة أخرى تقليد بعض النساء لنساء في خيانتهن الزوجية، إما لاثبات الأنوثة أو السعي لكسب المال والهدايا.

ويضع بعضهم اللوم على وسائل الإعلام وما تقدمه الفضائيات من أفلام للحب والغرام والخيانة بكل صورها، وغالباً ما تجد هذه الأفلام قبولاً من الرجل والمرأة، فقد تضرب على وتر حسـاس أو تسـد نقصاً لدى كل منهما في حنانه مع شـريكه الآخر، ومن ثم يتمنى هذا الشـيء على أرض الواقع ويسـعى جاهداً إلى فعله رغبة منـه في حصوله على مـا حصل عليه بطل أو بطلة الفلـم أو كلاهما معاً، ولم يعلم بأن هذا لا يحدث إلا في الافلام والقصص الخيالية، وأن هذا الأسـلوب هو أسـلوب تجاري رخيص ولو قدر لهما أن يطلعا على حياة البطل أو البطلة الحقيقية، لأدركا الحقيقة واكتشفا أن الأمر تمثيل.

إن البحـث عن الكمال صفة من صفات البشـر وغالباً ما يبحث كل من الرجل والمرأة عنه، وهذا أمر مستحيل أن نجد كل شيء في شيء واحد لذلك نرى بعضهم يحاول أن يبحث خارج المنزل عله يجد ما يفقده في شريكه، وقد يعيش أحد الزوجين فراغاً نفسـياً وأكثر تأثيراً منه الفراغ العاطفي القاسـي، وهـذا ما يجعله يبحث عن سـده خارج المنزل في أحضان أشـخاص آخرين وهميين، والسبب في هذا الفراغ أنـه موجود ما قبل الـزواج، أي نتيجة لتربيته، لم يأخذ الحب والعطف والحنان في أثناء تنشئته الأسرية، أي من الأب والأم، وهذا الفراغ قد يستمر مع الفرد من خلال الحياة الزوجية خاصة إذا لم يسد الشريك هذا الفراغ.

إن فقدان الثقة بالأب أو الأم خاصة إذا كانا من النوع الذي يحكي عن الفضيلة

والأخلاق ويعملان عكسها تماماً (فقدان المصداقية والقدوة بالأب أو الأم) تجعل الشخص عندما يتزوج يخون الطرف الآخر بعصيان أو عناد واحتجاج منه على ما كان قد عاشه مع أسرته.

ويذهب بعض المختصين الاجتماعيين إلى جعل الملل وحب التغيير سبباً في الخيانة، فبعض الأشخاص سريعو الملل، يتململون من كل شيء يفعلونه بسرعة وبالتالي يتململون من الارتباط بشخص واحد، كما أن بعض الأشخاص يرى أن أي شيء عند غيرهم أفضل مما بأيديهم، وبالتالي يرى الرجل أو المرأة أن شريك غيره أفضل من شريكه فيعمد إلى إقامة علاقة معه.

الدوافع العارضة للخيانة الزوجية

- **بالنسبة للمرأة:**

١- الزواج المبكر.
٢- رفقاء السوء.
٣- غياب الزوج لفترات طويلة سواء بسبب سفر أو عمل.
٤- المعاملة السيئة من قبل الزوج.
٥- عدم احترام الزوجة وإعطائها حقوقها الزوجية.
٦- الانتقام بسبب خيانة الرجل لها أو الزواج بأخرى.
٧- فقدان عنصر الحب والأمان العاطفي.

- **بالنسبة للرجل:**

- عندما تصبح العشرة باهتة باردة روتينية.. يبدأ الرجل بالبحث عن الرومانسية التي اختفت من حياته ويبحث عن امرأة تعطيه ما لم تستطع زوجته إعطاءه.
- قدوم مولود جديد يشغل الزوجة لفترات طويلة عن زوجها فيبحث عن الاهتمام خارج المنزل لأن الزوج يحب الاهتمام به ويرغب أن يشعر بأنه مرغوب دائماً.
- أزمة منتصف العمر عندما يبلغ الرجل ما بين (٥٠ – ٦٠) يبحث عما يهتم به ويعود كأنه مراهق ويعود بذاكرته لأيام الشباب وللحياة الرومانسية.
- مشاكل في العمل وعدم تقدير إدارته لعمله فيلجأ إلى من يثبت له أنه شخص مجد ويستحق التقدير فيضع نفسه أمام أول امرأة تتعاطف معه غير زوجته.
- سخرية المرأة من الرجل باستمرار وعدم احترامه والتعليق على تصرفاته

وانتقاده مما يجعله يبحث عن امرأة تحترمه.
- عدم تقدير المرأة لمشاكل زوجها وعدم مشاطرته تلك المشاكل.
- اختفاء المشاعر المتبادلة والحميمة وعدم التوافق الجنسي أو البرود الجنسي الشائع لدى بعض النساء.

التعامل مع المشاعر بعد الخيانة

يتساءل الكثيرون كيف يمكنهم التعامل مع مشاعرهم بعد الخيانة خاصة إذا أرادوا أن يستمروا في الحياة مع بعضهم خوفاً من الفضيحة وتفكك الأسرة وضياع الأولاد، وهذا الأمر عادة ما يكون مشكلة لدى المرأة لأن الرجل الشرقي ينهي الموضوع بالطلاق أو القتل، لذلك ستكون المعالجة هنا لمشاعر المرأة إنه من حقها أن تحزن فليس من المعقول أن تتظاهر بالبرود، فالأمر ليس سهلا، وقد يستمر هذا الأمر شهراً أو شهرين أو أعواما فالشرخ الذي حصل لا يلتحم بسرعة كما يعتقد الطرف الآخر، والجراح العميقة غالباً ما تحتاج لوقت حتى تلتئم، إلا أننا نوصي بالصبر والهدوء والثبات، فالمشاعر هنا تكون متأججة بنار الخيانة فيجب اعتماد الهدوء حتى تهدأ النفوس، وتتضح الأمور وتتمكن المرأة من تحديد الضرر الذي لحق بها، ولا بد أن تكون مستمعة جيدة لزوجها ليقول ما عنده علّها تتعرف على الأسباب وتستطيع تلافيها، ففتح باب الحوار مع الزوج أمر ضروري لتحديد أسباب الخيانة.

فتحديد أسباب الخيانة يساعد على إعادة العلاقة، وبنائها من جديد وإعادة الثقة بين الطرفين والوصول إلى تحديد لمستقبل العلاقة الزوجية مع الانتباه إلى عدم لجوء الزوجة إلى إذلال الرجل في حال اعترافه، ولو أنه لن يعترف ومن الأفضل ألا يعترف بشكل صريح بل بشكل مبطن لأن الرجل بطبيعته لا يرضى بالانكسار والإذلال والاعتراف بالخطأ.

مظاهر الخيانة الزوجية

تختلف مظاهر الخيانة الزوجية من شخص لآخر سواءً أكان امرأة أم رجلا إلا أنه غالباً ما يكون الأمر تغيراً مفاجئاً في السلوك، سواءً أكان هذا التغير نحو الأفضل أم نحو الأسوأ، كالغياب المستمر عن المنزل وتغير الطباع للأفضل أو للأسوأ، إغداق

الهدايا على الزوجة دون مسوّغ، الاهتمام الزائد بالمظهر والرشاقة وبأشياء لم يكن الزوج يهتم بها، والتغير ليس بسلوك الرجل فحسب بل المرأة أيضاً إذ تحاول التهرب من زوجها تجاه حقوقه الزوجية مع إهمال وانتقاد سلوكات تصدر عنه كانت فيما سبق تعتبرها عادية، وغياب عن المنزل غير مبرر، وبالنسبة للرجل والمرأة قد يصبح الخائن شديد الانفعالات عصبي المزاج غير مبال بواجباته أباً كان أوأماً.

ويلاحظ أن الخائن يصاب بالاكتئاب أحياناً، والقلق وقلة النوم، والسبب يعود إلى أن العقل الباطن يرفض الخطأ فيعبر بذلك عن موقفه دون أن يشعر الخائن بذلك.

هذه بعض من المظاهر والدلالات التي يمكن من خلالها أن يستشف طرف خيانة الطرف الآخر له أو وجود عنصر دخيل في حياتهما مع الاحتفاظ بخصوصية كل علاقة زوجية، واختلاف الأسباب أو المظاهر بحسب عمر كل منهما وسلوكه وتصرفاته.

الأضرار النفسية والاجتماعية للخيانة الزوجية

إن خيانة أي طرف لآخر يؤدي بالطرف الخائن إلى شعوره بالمخاوف والكآبة، وتحصل لديه حوادث متكررة ومخالفات قانونية وفشل ذريع في عمله وشعور دائم بالذنب، ويرى بعض علماء النفس أن بعض المجتمعات ترى أن الإنجاب من وظيفة الزوجة، أما الحب فهو للعشيقات، لذلك انتشرت ظاهرة الخيانات الزوجية بين الرجال والنساء عبر الطاقة، فلكل فكرة أو فعل طاقة معينة تنتشر عند التعامل مع الآخرين، فالرجل الذي يرافق رجلا يخون زوجته، ويعلن عن هذه الخيانة بكل رجولة وفخر تنتقل العدوى بالطاقة إلى الآخرين، ويقلد ذلك من باب ضرورة الانسجام مع المجتمع فيرجع إلى المنزل وتنتقل الطاقة إلى الزوجة.

ويضيف الخبراء أن الفكرة لدى الزوجة تأتي لديها في عملية الشعور بالخيانة الزوجية، وعندئذ إما تقوم الزوجة بمراقبة الزوج وتكشف الأمر فتنفجر المشكلة، أو تفضل الحصول على الطلاق، أو تنتقم بالخيانة الزوجية.

وفي دراسة علمية أخرى تبرز أن شعور مرتكبي الخيانة بالذنب وتأنيب الضمير يؤدي إلى وقوعهم فريسة للخوف والقلق والمشكلات والحوادث، فقد يراجعون بعض العيادات النفسية، ومجرد أن تحدثوا عن حالتهم النفسية طرح المعالج عليهم السؤال: هل تخونون الطرف الآخر؟ وعندما كانت الإجابة نعم، يكشف المعالج السبب.

ويسوّغ الأطباء النفسيون ذلك بأن العقل الباطن لا يسكت عن الخطأ.

أما عن أثر الخيانة الزوجية على الأسـرة: فقد يؤدي إلى دمارها، إذ قد يحدث الطلاق والجميع يعلم الآثار السلبية للطلاق على الطرفين والأولاد، وربما قد تؤدي إلى القتل خاصة إذا كانت الزوجة هي الخائنة، فمسـائل الشـرف حساسـة جداً في المجتمعات الشرقية، إذ قد يقتل الرجل زوجته حين اكتشافها وإن لم يحدث القتل أو الطلاق فإن فقدان الثقة لا بد أن يحدث، وأي علاقة زوجية ناجحة لا يمكن تصورها من دون ثقة متبادلة!

ومـن آثـار الخيانة الزوجية علـى المجتمع الفوضى الأخلاقيـة التي يمكن أن تحدث إذا انتشـرت الخيانات وتشتت الأسـرة وانتشرت الضغائن، لأن آثار الخيانة تمتد إلى أطراف الأسـرة، ويتلوها فضيحة اجتماعية أحياناً، وقد يشـمل ذلك الأثر أجيالاً، إذ سيتردد شاب في الارتباط بفتاة أمها خانت أباها أو العكس، ومن المخيف أيضاً تقليد البنت أمها أو يقلد الشاب والده، لأن كل منهما قدوة في نظر أولاده.

ماالتصرف المناسب عند اكتشاف خيانة الزوجة؟

قبل تحديد التصرف المناسب، نؤكد ضرورة الهدوء والصبر والحوار من قبل الزوجة، وسـنحدد مالا يجب أن تفعله الزوجة، وقد يسـتغرب القارئ لماذا حددت تصرف الزوجة ولم أحدد تصرف الزوج، وذلك لأن المجتمعات الشرقية مجتمعات ذكورية لا مجال للتفاوض، لذلك نقول للمرأة ما يأتي:

- ألا تتصرف برعونة، إذا اكتشـفت خيانة زوجها رغم التقدير الكبير لمشـاعرها وأحاسيسـها وكرامتها المجروحة، لأن التصرفات غير المدروسـة تخرب مسار القرار الذي سوف تتخذه في المستقبل بعد أن تهدأ وتستمع لنداء العقل.
- ألا تترك المنزل على الأقل في بداية المشـكلة، وعليها اسـتعادة توازنها وتراقب بعين الخبير، لأن بعدها عن المكان يفسح المجال للرجل للخيانة أكثر حيث يبتعد عـن رقابتها، وقربها من المـكان يجعلها تحس بعمق العلاقة، وتلقي الضوء على خيانته وخفايا الموضوع.
- أن تعـرف الكثير عن الموضوع قبل أن تتصـرف أي تصرف، ولتعلم المرأة أن الموضـوع قابل للإصلاح طالما لم يخرج خارج المنـزل، وعليها ألا تخبر أحدا عـن خيانته رغم أن لديها رغبة بإخبار أشـخاص تثق بهـم ليقفوا معها، إذ عليها

اختيار الشخص المناسب وإخباره، وعليها الحذر فقد تكون صديقتها الصدوقة غريمتها.

- أن لا تخبر رجلا ما بالموضوع لأنه قد يستغل ضعفها ويجرها للخطأ، وبما أنها تعاني من جرح فقد تتأثر به، وتصبح هي خائنة أيضاً.
- ألا تخبر عائلتها بالموضوع، لأن لهذا التصرف نتائج عكسية وسلبية في المستقبل، إذ قد تأخذ العائلة موقفا من زوجها وتعامله على أساسه، وقد تصطلح مع زوجها والعائلة ترفض ذلك، فالبشر لا ينسَى بل سيذكر ذلك.
- أن الأ تتجاهل المرأة خيانة زوجها فالتجاهل يجعل الأمر أسوء، فإذا شعر الزوج بهذا التجاهل يعتبره ضوء أخضر وموافقة ضمنية على استمراره في خيانته لها، فتجاهل الموضوع يشعر الزوج أنه غير مكشوف وأن زوجته لا مانع لديها في استمرار خيانته لذلك على المرأة مواجهة الموقف بهدوء وصبر وروية.
- عدم تأجيل المواجهة ريثما تحصل المرأة على الأدلة الكافية، لأن تأجيل المواجهة يجعل الزوج يتعلق بعشيقته أكثر، ويغدو أمر تركها أمر صعب جداً، ولتتذكر المرأة هذه القاعدة (إن الخيانة الزوجية تزدهر وتنمو مادامت باقية في الخفاء)، ويجمع خبراء العلاقات الزوجية أن مواجهة الزوج بخيانته يجب أن تتم وفق خطة مدروسة بدقة، أي اختيار الوقت والمكان المناسبين، وعلى المرأة أن تتذكر أن الخائن كذاب، لذلك سوف ينكر، فالكذب من ضرورات الخيانة الزوجية، إذن لا بد من المواجهة مع الأدلة المجموعة بالأسماء والتواريخ ومحادثات الهاتف...الخ.
- تسأله عن سبب الخيانة وعما ينوي فعله بعد أن كشفته.
- ألا تضيع وتهدر طاقتها في البحث عن المرأة الأخرى ومواجهتها، فإن أحد أسوء الأمور التي يمكن أن تحصل أن تصبح الزوجة مهووسة بغريمتها رغم معرفتنا بفضولها للتعرف عليها وعلى مزاياها، ولتتأكد تماماً الزوجة أن غريمتها، لا تستحق هذا الاهتمام وإن التحدث عنها باستمرار ومضايقتها يجعل تعاطف الزوج مع عشيقته يزداد، فالمشكلة ليست بالمرأة الثانية إنما في الزوج الخائن، لأن الرجل إذا أخذ طريق الخيانة، فسوف يجد آلاف النساء في طريقه لذلك.
- يجب عدم الاتصال بغريمتها أو مواجهتها، لأن هذا التصرف سيقرب بينهما دون أن تشعر، لذلك ننصح المرأة بتركيز جهودها على مشكلتها، وماذا ستفعل؟

• الوقاية من الخيانة الزوجية

إن التنشئة الاجتماعية السليمة هي الأساس في تصرفات البشر وسلوكاتهم لذلك على الأسرة أن تربي الأبناء تربية سليمة، وأن تكون لهم قدوة صالحة في تصرفاتها، وأن تنمي فيهم القيم الاخلاقية والروحية والضمير الحي.

وبعد أن يتزوج الأبناء فإننا ننصحهم بالتعرف على مشكلاتهم الزوجية بشكل مبكر ومحاولة مناقشتها بوضوح وهدوء وعدم التهرب منها والتغاضي عنها، فاعتراف صاحب المشكلة بمشكلته نصف الحل، ولابد أن يختار الرجل المرأة الصالحة، وأن تختار المرأة الرجل الصالح، وأن يبدي كل منهما اهتماماً بالآخر، وأن يكون الزواج زواجاً متكافئاً خاصة على صعيد فرق السن، إذ إن لفرق السن أثرا كبيرا في الخلافات الزوجية.

فالاختيار الجيد وحسن الرعاية والاهتمام المتبادل بين الطرفين عامل مهم من عوامل الوقاية من الخيانة الزوجية، مع بث روح المحبة والتفاهم والانسجام بين الطرفين.

وأخيراً لا بد أن يتذكر الأزواج أن حياتهم ليست ملكهم مئة بالمئة، إذ إنها ملك لأسرتهم، لأولادهم وعليهم تأدية رسالتهم بشكل جيد وبأعلى مستوى. فسرطان الخيانة أمر مرفوض لا يقبله أي مجتمع من المجتمعات، رغم اختلاف وقعه على المجتمعات المختلفة، وكل ما نرجوه السعادة والهناء للأزواج والحياة الكريمة للأبناء، فهؤلاء الأبناء رجال ونساء المستقبل.

المراجع

١) جمعية، يوسف ١٩٩٠م: التوافق النفسي –القاهرة – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
٢) مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٩م –المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات المستقبل -سلسلة كتب المستقبل العربي، بيروت.
٣) عسكر، علي: ٢٠٠٠م ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها – دار الكتاب الحديث – الكويت.
٤) القصير، عبد القادر ١٩٩٩م – الأسرة المتغيرة في مجتمع المدينة العربية –دار النهضة العربية – بيروت.
٥) محمد الحسن، إحسان ٢٠٠٠م : دور الأسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية –مجلة شؤون اجتماعية – العدد ٦٦.
٦) خليل – محمد محمد بيومي -٢٠٠٠م سيكولوجيا العلاقات الأسرية – القاهرة – دار قباء.
٧) الخولي، سناء (ب.ت) الأسرة والحياة العائلية – دار النهضة العربية بيروت.

إنــا للّه وإنــا إليه راجعــون

الهيئتان التدريسية والإدارية

في مجمع السيدة رقية عليها السلام فرع جامعة بلاد الشام

تتقدمان بأحر التعازي القلبية بوفاة

السيد محمد عدنان عبد اللطيف نظام

شقيق سماحة السيد عبد اللّه نظام

((رئيس مجمع السيدة رقية عليها السلام))

وتسألان المولى أن يتغمده برحمته الواسعة
وأن يلهم أهله وذويه ومحبيه الصبر والسلوان

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم